القطار..
حواديت وأشياء أخرى..!

الطبعة الأولى

١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م

اسم العمل : القطار.. حواديت وأشياء أخرى..!

اسم المؤلف: محمد صلاح الجميعي

التدقيق اللغوي: ملك محمد جلال

تصميم الغلاف: أحمد ربيع

الإخراج الداخلي: عمر أسامة

رقم الإيداع: ١٥٧٦٦ / ٢٠٢٤

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٩٩٩-٢٥-٩

مسار للنشر و التوزيع

شارع ونس - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية - مصر

01020439639

massar.pub1@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، ورقيًا أو إلكترونيًا، سواء بشكل كامل أو جزئي أو عرضه مجانًا عبر أي وسيلة وبأي شكل من الأشكال من دون الحصول على تصريح خطي من دار مسار للنشر.

القطار

حواديت وأشياء أخرى

محمد صلاح الجميعي

مَسَار
للنشر و التوزيع

ويبقى الخيال مداعبًا حلمك.

والواقع متعنتًا لا يرضخ.

أما الحقيقة.

فلا يعلمها إلا أنت!

مقدمة

لم أكتب لأنني فيلسوف يملك حكمة الحياة، بل لأنني إنسان مثلك، امتلأ عقله بأفكار لم تهدأ. كتبتُ لأنني أردتُ أن أشاركك هذه الرحلة.

هي قصص وأفكار قد فاض العقل بها ومال القلب إلى انبعاثها.

كل حكاية هنا، وكل شخصية، هي دعوة للانضمام إلى رقصة من التأمل والدهشة، حيث لا تنتهي الحكايات عند حدود الكلمات.

لعلّكم تجدون فيها ما يمسّ قلوبكم، كما مسّني شغف كتابتها ذات يوم!

للتواصل عبر الإيميل:

melgemaay38@gmail.com

القطار

«أخيرًا!» همستْ لنفسها وهي تحتضن نتيجة قبولها بالجامعة. «أخيرًا، سأتحرر من هذه القيود.. سأبدأ حياتي الجديدة بعيدًا عن عيون الجميع».

ودّعتْ أهلها بنظرة أخيرة قبل أن تتوجه إلى محطة القطار.

جلستْ في مقعدها، وضعتْ حقيبتها أمامها بحذر وكأنّها تحفظ أسرارها داخلها، تفقدتْ محفظة النقود بابتسامة خفيفة.

بدأ القطار بالتحرك. أخذتْ مشاعرها تتأرجح كالبحر الهائج، تموجات من الخوف والفرحة تتصارع في قلبها! خوف من المجهول.. فرحة غامرة بما قد يحمله المستقبل بين طياته.

«هل ينظر إليّ؟». رفعت عينيها بحذر لتجده ينظر نحوها.

حاولتْ تجاهله لفترة، لكن فضولها غلبها.

«لماذا يحدق بي؟ ماذا يريد؟».

تراه يبتسم.

«تلك الابتسامة... ماذا تعني؟».

تحركتْ عيناها بسرعة لتجنُّب تلاقي النظرات.

بدأ يقترب منها. رافضةً هذه الخطوة، بداخلها رغبة دفينة أن يقدم عليها.

قلبها يرتجف بشدة.

«هل سيتحدث الآن؟ هل يجب أن أقول شيئًا؟».

تراجع قليلًا، وقف في مكانه.

«لماذا لم يقدم على تلك الخطوة؟» تساءلتْ في نفسها.

فتحتْ حقيبتها بيديَن مرتعشتين، أخرجتْ كتابًا وبدأتْ في القراءة، ولكن الكلمات أمامها كانتْ كالطلاسم. لا تستطيع التركيز.

تبادلا النظرات مرة أخرى، قلبها ينبض بقوة كلما التقتْ عيناه بعينيها، وكأنّ كل شيء حولها قد تلاشى.

إنّه ما زال يبتسم؛بل عيناه هما اللتان تبتسمان. تلك الابتسامة الساحرة.

سمعتْ أحدهم يعلن بصوتٍ عالٍ عن المحطة القادمة.

ارتجفتْ من الداخل خوفًا من أن يكون قد حان وقت رحيله.

نظرتْ إليه، ولكن... لم ينزل.

تنفستِ الصعداء، شعرتْ براحة غامرة، كأنّ قلبها عاد ينبض من جديد.

تبادلا عبارات الصمت الساحرة التي تعبر عن الروح السعيدة في قطار السعادة. نظراته لم تكن عابرة؛ هناك شيء في تلك العيون، شيء يحاول أن يقول ما لم تقله الكلمات.

تمنتْ في سرها: ليت القطار لا يتوقف أبدًا.

لكن القطار سيتوقف في محطات محددة، وهو حتمًا سينزل في محطته، تاركًا إياها وحيدة.تلك الحقيقة المؤلمة.

فكرتْ لبرهة: «إذا تركني، سأموت... ما الحل إذن؟».

تكررتِ الأفكار في عقلها كصدى يرفض أن يغادر. وفجأة، شعرتْ بشيء كالبرق يخترق حواجز أفكارها.

لقد قررتْ أن توقف القطار.

نهضتْ فجأة من مقعدها واندفعتْ نحو مسؤول القطار تطلب منه بإلحاح أن يوقف القطار.

نهرها ووصفها بالجنون.

اتجهتْ إلى الركاب، راجيةً المساعدة. «أوقفوا القطار! لا أستطيع أن أدعه يرحل».

نظروا إليها بذهول، ثم انفجروا ضاحكين. ضحكاتهم كانت كالسكاكين تمزق روحها.

تتوسل إليهم: «أرجوكم، أرجوكم أوقفوا القطار.. إنّ حياتي متوقفة على هذا القرار، أرجوكم ساعدوني!».

«لماذا لا يفهمون؟ لماذا يضحكون؟».

صرختْ كالبركان دون توقف: «أوقفوا القطار.. أوقفوا القطار!».

حاولتْ مرارًا وتكرارًا في يأس، لكن دون جدوى.

هرعتْ إلى مقعدها بسرعة، عيناها تبحثان عنه في كل زاوية من القطار.

«سأعتذر له.. سأخبره أنني حاولت.. سيتفهم موقفي، أنا متيقنة من ذلك».

ولكن لا أثر له. لقد رحل!

لم يتبقَ منه سوى مقعده الفارغ.

جلستْ على مقعدها وهي غارقة في بحر من اليأس وصدى صراخها ما زال يتردد في أرجاء القطار.

سمعتْ صوتًا يحدثها: «يا بنيتي، القطار لا يتوقف. عليكِ اختيار محطة للنزول».

نظرتْ إلى صاحب الصوت والدموع تملأ عينيها، وقالتْ بأسى:

«لقد فاتتني المحطة».

فئران وثعالب

الذئب يحمل ابنته بين يديه، دماءها تسيل على فروه، ولسانها مقطوع، وعيناه مغرورقتان بالغضب والأسى. يدخل إلى قاعة المحكمة، وكل خطوة له تهز الأرض، ثم يتوجه إلى القاضي بصوت مختنق بالغضب: «لقد قتلوها، سيادة القاضي.. قتلوا ابنتي!».

رفع القاضي رأسه ببطء، ملامحه جامدة وعيناه تخفيان الكثير، ثم سأل بهدوء: «من تتهم ؟ من الذي قتل ابنتك؟».

الذئب، مشيرًا بيده الملطخة بالدماء، يكاد ينفجر من الغضب: «إنّهم الفئران! هم الذين شربوا دمها في كؤوسهم وقطعوا لسانها!».

ابتسم القاضي بسخرية باردة، ثم قال وكأنّه يخاطب طفلًا ساذجًا: «ما دليلك يا ذئب؟ هل رأيتهم بأم عينك؟».

ازدادتْ عيناه احتقانًا بالدموع والغضب، وصاح متشنجًا: «إنّهم يشربون الدماء في الكؤوس، ويقطعون الألسنة ويطهونها لمتعتهم. لا أحد غيرهم يفعل هذا!».

نظر القاضي إلى الذئب نظرة غامضة، ثم قال ببطء وكأنّه يستمتع بتعذيبه: «ابنتك لم تقتلها الفئران. إنّها ماتتْ من الفزع..

الفزع قتلها».

صمت الذئب للحظة، وكأنّ الصدمة أصابته بالشلل. ثم نظر إلى القاضي بنظرة مليئة بالشك والاشمئزاز. تردد صوته في عقله: «هل القاضي حقًا قاضٍ أم أنه فأر متنكّر في زي ثعلب؟».

أخذ الذئب ابنته بين ذراعيه، وهو يحدق في القاضي بنظرة تحمل كل الألم والخيانة.

مرتِ الليالي الباردة، وظهر البدر في سماء ملأها السكون المخيف. ومن بين الظلال، ظهر الرجل الذئب، عيناه مشتعلة برغبة الانتقام، وفمه يهمس بوعد قاتل: «اليوم لن أنظر خلفي.. اليوم سأجلب العدالة بنفسي». لم يكن وحده، بل رافقته بعض النمور والأسود، أصوات زئيرهم ترتفع مع كل خطوة، وكأنّ الأرض نفسها تهتز تحت أقدامهم. كانوا يعرفون وجهتهم.. إلى قلب مملكة الفئران.

وعندما وصلوا إلى مكان الفئران، لم يكن هناك صراع طويل. الفئران لم تحاول الهرب، وكأنّها تعلم أنّ النهاية قد حانتْ. لكن لم تكن أنياب الذئاب أو مخالب النمور هي التي قتلتهم.. لقد كان الفزع الذي استقر في قلوبهم، الفزع الذي لم يترك لهم مجالًا للحياة.

الفزع قتلهم!

سيلفي

ضمها إلى صدره بحنان وقال بصوتٍ دافئ: «بحبك يا حياتي».

نظرت إليه بعينين تملؤهما المحبة والدفء، ثم قالتْ بابتسامة ناعمة: «حبيبي، اللحظة دي مثالية، بس بصراحة ناقصها حاجة».

رد متحمسًا: «إيه ناقصها يا روحي؟».

قالتْ وهي تخرج هاتفها: «سيلفي طبعًا! إزاي كل ده يحصل من غير توثيق؟».

«حبيبتي، أكلك جميل. تسلم إيدك».

ابتسمتْ بفخر، وقالتْ: «شكرًا حبيبي.. بس نتصور معاه. مافيش بركة غير بالسيلفي!».

نظر إلى الأطباق وقال: «بس الأكل هيسقع».

ردتْ وهي تضبط الزاوية المناسبة: «ما يهمش، الصور أهم.. الطعام بيفوت، لكن السيلفي بيعيش للأبد».

«حمدًا لله على سلامتك يا حبيبي، كنت قلقانة عليك جدًا. كنت بدعيلك كل لحظة».

أراد أن يجيبها، ولكنّه تفاجأ بأنها قاطعته: «قبل ما تقول أي حاجة.. ممكن ناخد سيلفي وإنت على جهاز القلب؟ هيبقى لايكاته نار».

نظر إليها بحيرة، وقال: «بس أنا تعبان»..

ردتْ بجدية: «حبيبي. تخيل الكومنتات: يا جماعة، ده كان بين الحياة والموت، وربنا نجاه».

أول مولود.. الفرحة تملأ قلوبهم.

«حبيبتي، أنا فرحان جدًا. ربنا يخليكِ ليا».

استوقفته بحماس: «ثانية واحدة يا حبيبي! إزاي نخلي الناس تعيش الفرحة معانا؟ خلينا ناخد صورة مع المولود الجديد ! الله، دا هيتجننوا عليه».

الحادثة كانتْ صعبة، السيارة مقلوبة.

قالها متأملها بحزن: «الحمد لله جات سليمة.. بس العربية

اتبهدلت».

نظرتْ إليه وهي تمسك يده بحنان: «معلش، العربية تتعوض.. أهم حاجة إنّك بخير».

ثم قالتْ بسرعة: «حبيبي.. متخيل صورة العربية وهي مقلوبة وإحنا عاملين علامة النصر؟ في عز المصيبة نكون إيجابيين. السيلفي ده هيكسر الدنيا!».

عند المأذون..

قال المأذون بلهجةٍ مترددة: «يا بني، فكر كويس.. إن أبغض الحلال عند الله الطلاق».

تنهد الزوج، وقال بحزم: «اتكل على الله يا مولانا، أنا قررت».

نظرت إليه، الدموع تملأ عينيها، قلبها ينبض بالأسى.. لكنّها فجأة لاحظتْ شيئًا غريبًا. أخرج هاتفه ببرود ونظرإليها قائلًا:

- حبيبتي ممكن...

تتهلل أساريرها.. ربما رجع في قرار الطلاق! تقاطعه في حماس: أؤمر يا حبيبي..

«دي لحظة لا تُفوَت» قال لها.

رفعتْ حاجبيها بدهشة: «يعني إيه؟».

ابتسم، وقال: «سيلفي الوداع، طبعًا!».

«ممكن نأخذ سيلفي معالمأذون واحنا بنتطلق».

حورية

رأى شيئًا يقترب من بعيد، غير واضح الملامح. اقترب أكثر، فتحتْ عيناه على مشهد لم يكن يتوقعه.

كان هناك كيان يشع جمالًا وهدوءًا، يسبح باتجاهه على سطح الماء.

نادى بحذر مختلط بالدهشة: «من أنتِ؟».

أجابته بصوت رقيق: «أنا حورية من البحر».

شعر برهبة ممزوجة بالإعجاب، أجاب بتلعثم:

«بالطبع أنتِ كذلك؛ جمالك لا يشبه شيئًا على هذه الأرض».

ابتسمتْ بخجلٍ، وقالتْ: «هل تنتظرني حتى أُحضر لك ما لذ وطاب من بحور الأرض؟».

أومأ برأسه بسرعة: «بالتأكيد، سأنتظر».

أجابتْ وهي تهم بالرحيل: «لن أتأخر عليك، سألقاك غدًا».

توقفتْ قليلًا، ثم سألته بابتسامة: «ماذا تريد من بحور الأرض؟».

قال وهو لا يزال في حالة من الدهشة: «أي شيء.. أي شيء!».

ضحكتْ بخجل قبل أن تختفي بين أمواج البحر.

مرتِ الأيام. انتظرها يومًا.. ثم أسبوعًا.. الناس يمرون بجانبه، يسألونه باستغراب: «ماذا تنتظر؟! إنّها لن تأتي.. لا تضيع وقتك».

لكنّه كان واثقًا من عودتها. ظلّ ينظر إلى البحر بعينيه المليئتين بالأمل. «ستعود، لا بُد أن تعود» كان يرددها كل يوم.

انتظر شهرًا كاملًا دون أن يفقد الأمل، وفي ليلة كان القمر مكتملًا، ظهرتْ من جديد. كان ظهورها كعودة الأمل إلى قلبه.

بادرها بالسؤال وقد ملأه الشوق: «لماذا تأخرتِ؟».

أجابته بصوت هادئ: «أنا لم أتأخر.. ألا تعلم أنّ يومًا عندنا يساوي شهرًا عندكم؟».

تنهد بارتياح وقال: «لا يهم الوقت.. المهم أنكِ عدتِ، ولن أتركِكِ بعد اليوم».

انتشر الخبر بين الناس. كيف يتزوج رجل من حورية؟! الكل يسخر منه: «هل جننتَ؟! هذه مخلوقة غريبة.. تعقَّل».

نظر إليهم بعين مليئة بالتحدي، وقال: «فليكن.. سأتزوجها».

ثم أضاف بصوت حازم: «جنوني هو حريتي. أما عقلكم فهو سجني».

تزوجا.. واتحدتِ الأرض بالبحر وأنجبا جيلًا جديدًا.. جيلًا لا يعرف المستحيل. جيلًا يؤمن بالحرية. جيلًا يحكم الأرض بالعدل والحب..

جيلًا كان أبوه رجلًا..

وأمه حورية.

القوقعة

في عالم القواقع؛ حيث كان كل شيء محاطًا بجدران صغيرة وآمنة. جلس (قاسم) حزينًا في قوقعته الضيقة. كانتِ السيول قد اجتاحتْ كل المناطق، وتمكنتْ من تدمير معظم القواقع، وبدأتِ القواقع تنهار واحدة تلو الأخرى.. مثل أحلام تحطمها أمواج القدر.

القوقعة التي عاش فيها (قاسم) لسنوات كانتْ أكثر من مجرد منزل؛ كانت ذكرياته، موطنه، ومستقبله. لم يكن ترك القوقعة بالنسبة له أمرًا هينًا.

دائمًا ما كان يردد: «القوقعة ضيقة، لكنها مكان العيش والراحة».

صوت زوجته يخترق شروده:

«إلى أين نذهب؟ ما العمل؟ يجب أن نغادر، علينا الخروج!».

الواقع كان يحتّم عليه مغادرة القوقعة على الفور، ففكر مليًا واتخذ قرارًا مصيريًا: الفرار إلى المجهول. جمع أسرته وخرج من القوقعة، مع جيرانه من سكان القواقع الأخرى. في رحلة البحث عن مأوى. مروا بالصحراء، اكتووا بنارها الحارقة. صعدوا الجبال، قطعوا الوديان، وكل خطوة تزيدهم تعبًا وارتباكًا.

في إحدى الليالي، نبهته زوجته بلهفة:

«قاسم، انظر هناك».

رفع بصره، فرآه.. القصر العظيم، يلوح في الأفق كأنّه ملاذ الأحلام.

القصر ذو الحديقة الكبيرة كان يُوصف بالجنة. البعض كان يشكك في وجوده.

(كامل)، صاحب القصر ومالك الحديقة، كان من المحاربين القدامى الذين حاربوا لطرد الغزاة، وقد ورث القصر عن أبيه. كان رجلًا طويلًا ضخم البنية، ذا وجه حاد الملامح وشارب سميك، قليل الكلام وهادئ الطباع.

طرق (قاسم) وعائلته باب القصر، وكأنهم وجدوا طوق النجاة.

بعد وقت ليس بالقصير، فتح لهم (كامل)، ألقى عليهما التحية وهو ممسك بكأس من الماء.

بادلاه التحية متعجبًان من طول قامته وعظمة بنيانه مستنجدان أن يأويهما.

سمح لهما بالدخول، قائلًا:

«يبدو أنّكما لاجئان من جحيم السيول التي أصابت القواقع. تفضلا، وأهلًا بكما في القصر».

دخل (قاسم) وأسرته القصر، غير مصدقين أنّهم قد نجوا من التشرد والضياع. نظر إليهما (كامل) مبتسمًا، وقال بصوت هادئ كأنّه يحدث نفسه:

«لقد حاربنا من أجل تحرير القواقع، ولكنها السيول والمصير المحتوم».

همستِ الزوجة في أذن (قاسم): «فلتسأله عن المقابل لمكوثنا في القصر».

اتجه (قاسم) بخجل إلى (كامل) وسأله:

«هل لنا أن نبقى لفترة حتى نجد قوقعة جديدة؟».

أجابه (كامل)، وقد ارتسمتْ على شفتيه ابتسامة هادئة: «اليوم راحة وضيافة، وغدًا لنا حديث. القصر قصركما، والحديقة أيضًا».

في صباح اليوم التالي، استيقظ (قاسم) وزوجته على أصوات الكناريا والعصافير في الحديقة. نظرا من نافذة الغرفة إلى الحديقة وانبهرا من روعة وجمال المنظر. ذهب (قاسم) لمقابلة كامل الذي بادره قائلًا:

«فلنتفق، يا قاسم. أريدك أن تبني قوقعة أخرى لك ولأسرتك

في الأرض المجاورة لقصري عوضًا عن تلك التي فقدتها، وستظل في قصري لحين الانتهاء من بناء القوقعة».

أجابه (قاسم) على الفور: «ولكن من أين لي بالمال لبناء القوقعة؟».

رد (كامل) بصوت رصين وبابتسامة هادئة: «لك المال وكل ما تحتاجه لبناء القوقعة».

فرح (قاسم) وقال: «هذا كرم بالغ منك، إنّه جود العظماء».

يومئ كامل برأسه تأكيدًا ويستطرد قائلًا :«لكن يوجد شرط لإتمام الاتفاق».

«ما هو؟» سأل (قاسم) بلهفة.

أجابه (كامل): «يجب الانتهاء من بناء القوقعة في مدة أقصاها ثلاثة أشهر».

فرح (قاسم) بهذا العرض المغري، وذهب مسرعًا إلى زوجته ليزف لها الأخبار السعيدة. بدأ (قاسم) بمساعدة زوجته في بناء القوقعة، وكل يوم يمر عليهما (كامل) ويشاهد ما تم إنجازه.

الأولاد كانوا يمرحون في القصر ويأكلون من الحديقة ما يشتهون. بدأ الشعور بالترف يبدو على (قاسم) وزوجته، وشغلتهما حياتهما

الجديدة، فتراخيا في بناء القوقعة.

ذات صباح، أثناء جلوس (قاسم) وزوجته في الحديقة، قالتِ الزوجة: «انظر كيف تعوّد الأولاد على المرح واللعب؟ لقد أصبحوا أكثر جمالًا ونضارة».

ابتسم (قاسم)، وقال :«لولا كامل لأصبحنا من المشردين».

قالتِ الزوجة في لهفة :«إذن، فلنستغل الفرصة، فإنّها لا تأتي إلا مرة واحدة في العمر».

أجابها (قاسم) مؤكدًا: «نعم، إنّها فرصتنا الوحيدة، فعلينا أن نسرع في الانتهاء من بناء القوقعة قبل انتهاء المدة كما اتفقنا».

نظرتْ إليه الزوجة بتهكم قائلةً: «أي قوقعة تتحدث عنها؟ فلتنسَ حياة القواقع، فرصتنا هي الحياة في القصر. دعنا لا نكمل بناء القوقعة حتى نجد لنا عذرًا للبقاء في القصر».

نظر (قاسم) إليها مستنكرًا: «كيف تطلبين طلبًا كهذا؟! ألا تعلمين أنّه بعد الانتهاء من بناء القوقعة، ستصبح لنا؟ لقد وعدنا الرجل، ويكفي أنّه ساعدنا بالمال، إنّه رجل كريم و...».

قاطعتِ الزوجة على الفور: «صدقني، لن يمانع، وهو رجل وحيد. ماذا يضيره إن سكنّا معه؟».

وتابعتْ بإصرار: «القصر لا يسكنه أحد غيره. هو رجل طيب للغاية وسوف يوافق».

نظر (قاسم) إلى أولاده وهم يضحكون ويلعبون، تاركًا زوجته في صمت.

في ليلة من الليالي، خرجتْ زوجة (قاسم) من غرفة (كامل) وقد التحفتِ الهواء غطاءً لها، وهي تطير فرحًا وسرورًا.

تم التوقف عن بناء القوقعة، (قاسم) وأسرته يغرقون في لذة الحياة الجديدة وكأنّهم مخلدون فيه.

بعد مرور ثلاثة أشهر، جلس (كامل) أمام (قاسم) وزوجته، يمسك بكأس الماء، وقال بهدوء:

«انتهتِ المدة، يا قاسم. لماذا لم تكمل بناء القوقعة؟».

صمتَ (قاسم)، ناظرًا إلى زوجته وقد ملأه الخجل.

(كامل) متسائلًا بحزم: «أليستِ القوقعة كانتْ كل ما تريده يا قاسم؟».

نظر (كامل) إلى زوجة (قاسم) نظرة طويلة، مليئة بالخيلاء والنشوة. ثم أكمل حديثه إلى (قاسم) في لهجة صارمة: «إذن، أنت فشلت، يا قاسم. لم تنجح في المهمة التي وكلتْ إليك!».

نظر (قاسم) إليه، وقد بدا عليه الندم، قائلًا بتذلل: «لقد ألهتنا حياة القصور ..أرجوك، أعطني فرصة أخرى وسوف...».

قاطعه (كامل) بوقْعٍ كالصاعقة: «فلترحلوا من قصري، فلترحلوا الآن!».

صرختْ زوجة (قاسم)، ناظرةً إلى (كامل) وراكعةً على ركبتيها: «لا، أرجوك، أعطنا فرصة أخرى. رجاءً، رجاءً...».

قال (كامل) بثبات، وقد احمرتْ عيناه جاحظتين: «ليتكما تعلمان ما المكافأة إذا انتهيتما من بناء القوقعة في المدة المحددة».

نظر إليه (قاسم)، وقد تصبب وجهه عرقًا، قائلًا: «نعلم، كانتْ ستكون ملكًا لنا».

نظر إليه (كامل) نظرة طويلة مرتْ على (قاسم) كالدهر، ثم ألقى بكأس الماء الذي في يده على الأرض قائلًا: «ليس صحيحًا، يا قاسم. كان سيكون لكم القصر والقوقعة معًا!».

بكى (قاسم)، وقد بدأتْ ترتجف أوصاله وسط صراخ وعويل زوجته، قائلًا في توسل: »إذن، أنظرني، أمهلني فرصة أخرى، أرجوك، أرجوك...».

ضحك (كامل) ضحكة مجلجلة، وأدار إليهما ظهره قائلًا بصوتٍ

هادئ: «انظر إلى الماء المسكوب، حاول أن تعيده مرة أخرى إلى الكأس، فإن عاد؛ فلك فرصة ثانية».

نظر (قاسم) إلى الماء المسكوب، وقد أخذ مسارات عديدة.

بضحكات متقطعة صرخ (كامل) كالرعد، وهو متوجهًا إلى باب القصر: «فلترحلوا الآن، لا يوجد عندي مكان للفشلة».

ارتج القصر من صوت (كامل) وسط صراخ (قاسم) الذي يطلب فرصة أخرى، وانهيار زوجته التي أغشي عليها.

دق جرس القصر من جديد، وفتح (كامل) الباب، مُرحبًا بزواره الجدد من سكان القوقعة.

ولكنّها قوقعة أخرى.

بدون ذكر أسماء

كنتُ أظن أنني الأذكى والأفضل، كما كان يؤكد لي دائمًا. الاتفاق كان واضحًا: قيراط من ذهب وبدلة فضية مقابل التخلص من أحد الموجودين في الغرفتين.

أخذتُ نفسًا عميقًا قبل أن أفتح الباب الأول. يداي ترتعشان، وخطواتي تتثاقل كأنّها مسكونة بالخوف. دفعتُ الباب ببطء، متوجسًا ممّا قد ينتظرني في الداخل.

الغرفة الأولى:

ما إن خطوتُ داخل الغرفة حتى انقض عليّ رجل كأنّه وحش مفترس. عضلاته المفتولة تضغط على جسدي، ولكماته القاسية تنزل على بطني وكتفي دون رحمة. كان يحمل سلاحًا، ووجهه صارم، ولحيته الكثيفة تزيده هيبة وقسوة. نظر إليّ بعينين مليئتين بالشر وقال بصوت يملؤه السخرية: «اخلع ملابسك».

ترددتُ، لكن نظراته كانتْ قاتلة، وسلاحه كان جاهزًا. خفتُ على حياتي وخلعتُ ملابسي بسرعة، صراخي يملأ المكان، ولكن لم يكن هناك أحد ليسمعني. كان الصوت الوحيد هو صوتي المتلاشي في هواء الغرفة الكئيبة.

خرجتُ من الغرفة مهزومًا، منكسرًا، وجسدي مرهق من الألم والذل. لكن سرعان ما تذكرتُ أنّه لم يرني أحد، وأنّه لا يزال لديّ فرصة في الغرفة الثانية. ربما هناك يمكنني تنفيذ الاتفاق.

الغرفة الثانية:

دخلتُ الغرفة بخوفٍ يرافقني، متوقعًا الأسوأ. لكن الغرفة كانتْ مختلفة. على السرير كان هناك رجل هزيل، ضعيف، ملامحه مليئة بالإرهاق، لكن عينيه كانتا تلمعان بنظرة تحدٍّ. بادرني بالكلام بنبرة هادئة، وكأنّه يعلم ما يجول في خاطري: «ادخل.. اجلس، لن أؤذيك».

تقدمتُ نحوه بتردد، وسألته: «هل تعرفني؟».

ابتسم بحزن، وقال: «نعم، أعرفك منذ زمن بعيد. وأعلم لماذا جئت». ثم أضاف بصوت مطمئن: «ليس لدي ما أقاتلك به. ولكن دعني أخبرك بشيء، أنا مستبشر بمستقبل جديد. يجب أن نتعاون سويًا للقضاء على الظلم والفساد».

أحسستُ لحظة بنواياه الصادقة. بدا لي كأنّنا يمكن أن نجد مخرجًا من كل هذا الجنون. لكنني تذكرتُ الاتفاق. تذكرتُ القيراط والبدلة الفضية. لم أمهله أكثر.. هجمتُ عليه بكل ما أوتيتُ من قوة، وغرزتُ نصل السكين في ظهره. رأيته ينهار أمامي، جثة هامدة.

خرجتُ من الغرفة ويداي ملوثتان بالدماء. كان قلبي ينبض

بشدة، لكن الغضب والفرحة غطيا على كل شيء. «لقد قتلته.. لقد نفذتُ الاتفاق!»، صرختُ بنشوة: «سأحصل على المكافأة.. القيراط الذهبي والبدلة الفضية هما لي الآن».

لكن عندما نظرتُ حولي، لم أجد أحدًا سوى الرجل مفتول العضلات؛ ذلك الذي هزمني في الغرفة الأولى. كان يقف هناك، مرتديًا البدلة الفضية، وفي يده قيراط الذهب. نظر إليّ بسخرية لا تخفى، ثم انصرف، تاركًا وراءه سكونًا مميتًا.

مرتِ السنوات، وما زلتُ أذكر أنني كنتُ الخائن الذي قتل الضعيف الأعزل، ولم أحصل على المكافأة.

لم يذكر أحدٌ اسمي حتى الآن؛ فالقصة كاملة تروى..

ولكن..

بدون ذكر أسماء.

المجنونة

أصبحتْ رؤيتها مشهدًا مألوفًا لسكان الحي الراقي. تمر كل صباح ومساء، بملابسها الممزقة، تصرخ بكلمات غير مفهومة، تارةً تهمس لنفسها، وتارة أخرى تصب الشتائم على من حولها. الناس في الحي اعتادوا على هذا المنظر.

أحيانًا يأتي أحد المارة ويعطيها بعض الطعام، وأحيانًا أخرى يتجاهلها الناس أو يسخرون منها.

كلٌّ منهم لديه قصة عن هذه المرأة. يُقال أنّها كانتْ ثرية، وكانتْ تعيش في أرقى المنازل، لكن الزمن والمرض أوقعاها في هذا الحال. قيل أنّ أولادها تخلوا عنها بعدما أصيبتْ بالزهايمر.

إنّها المجنونة.

لكن لم يعرف أحدٌ القصة الحقيقية.

في أحد المنازل الراقية، رن الهاتف. يدٌ مرتعشة التقطته بلهفة، وأمل خافت ينبض في قلبها.

«آلو.. هل اتصل بكِ اليوم؟».

«للأسف، لم يتصل».

«ربما يتصل لاحقًا، لا تفقدي الأمل».

أغلقتِ الهاتف، ودمعة ثقيلة شقتْ طريقها على خدها. مرتْ سنتان دون أن تسمع صوته.

كانتْ تنتظر دائمًا، تترقب تلك اللحظة التي تسمع فيها صوت ابنها الوحيد، الطبيب النفسي الذي رحل ليبني حياته في المملكة المتحدة. أنفقتْ كل ما تملك لتعليمه، لتمنحه فرصة أن يصبح شيئًا عظيمًا. لكنّه نسيها في عالمه الجديد، نسي الأم التي كانتْ كل حياته.

اليوم كان عيد الأم، والانتظار تحول إلى طقوس. جلستْ بجوار الهاتف، تتنفس ببطء وكأنّها تحاول أن توقف عقارب الساعة. مرّتِ الساعات ثقيلة، وبدأ اليأس يتسلل إلى قلبها. لم يكن هناك صوت سوى الفراغ الذي يملأ الأرجاء.

أمسكتِ الهاتف بيدين مرتعشتين. قررتْ أن تتصل بنفسها، ربما يرد هذه المرة. حاولتِ الاتصال، مرة بعد أخرى، ولكن كان الرد واحدًا: صفارة البريد الصوتي.

«آلوو... ابني الحبيب. لماذا لا ترد؟! لماذا لا تتصل بي؟ أرجوك.. أنا بحاجة إليك. لماذا أنت بهذه القسوة؟ أنا أمك...».

أغلقتِ الهاتف، وانهارتِ الدموع على وجهها. كانتْ تشعر وكأنّ الزمن قد توقف، وأصبحتْ عالقة في دوامة من الحزن والخذلان.

مع تزايد اليأس، نزلتْ إلى الشارع بملابسها البسيطة، عيناها تحملان لمعة الجنون، وصوتها يرتجف مع كل خطوة. بدأتْ تصرخ في الشوارع:

«أين أنت؟ لماذا لا تتصل بي؟!».

راحتْ تطرق أبواب الجيران، تطلب الإجابة عن سؤالها المستحيل. لماذا تخلى عنها ابنها؟ لم يكن لديها جواب، فقط المزيد من الأسئلة التي لا تجد لها مخرجًا.

أصبح المارة يتوقفون للحظات، يشاهدون هذا المشهد المؤلم. بعضهم يهز رأسه بحزن، والبعض الآخر يتنهد وكأنّهم قد توقعوا هذا المصير منذ البداية. أحدهم همس إلى الآخر:

«لقد عادتْ».

«لقد عادتِ المجنونة».

الرسالة

جلس الصحفي أمام الفنان المعروف، يسأله بابتسامة متحفزة: «ما هي الرسالة التي تودون إيصالها إلى الجمهور من خلال الفيلم؟».

رفع الفنان رأسه بفخر، واضعًا كأسه جانبًا والسيجار الفاخر بين أصابعه، وقال بلهجة واثقة: «تحقيق العدالة والقضاء على دولة الفساد.. دور الفن هو تسليط الضوء على مشاكل المجتمع؛ حتى نستطيع القضاء عليها».

ابتسم الصحفي بخبث وهو ينظر إلى الكأس والسيجار، ثم قال: «أحسنتَ يا فنان.. كعادتك، (ما انبلها من رسالة!)».

فجأة، يأتي تليفون للفنان. يغيّر ملامحه فورًا وينفجر غاضبًا: «سأتصل بالوزير فورًا! هذه فوضى!».

الفنان: «معالي الوزير، لقد تعاقدتُ مع الوزير السابق على شراء أرض في الساحل الشمالي بسعر جيد، والآن تأتي لتخبرني أن السعر قد تغير! ماذا يحدث هنا؟ هذا هراء!».

يجيبه الوزير بهدوء: «أعتذر لك يا فنان، ولكنّه القانون الجديد».

الفنان (محتقن الوجه): «أي قانون هذا؟! نحن الفنانون الذين

نرفع اسم الوطن عاليًا وننشر الوعي، لماذا نُعامل هكذا؟! ألم تسمع أغنيتي الجديدة؟)هناخد حب علشان بندي من القلب)! أنت تعرف أننا نعمل من القلب، أليس كذلك؟!».

الوزير (متحمسًا): «بالطبع، بالطبع! رسالتكم الوطنية عظيمة. سنعمل على حل هذه المسألة في أقرب اجتماع لمجلس الوزراء. ستكون على رأس الأولويات، فقط استمع لأغنيتك بينما تنتظر».

الفنان (مبتسمًا ومطمئنًا): «أشكرك يا معالي الوزير. يبدو أنّ العدالة ستتحقق قريبًا!»

في مشهد آخر، نرى الوزير نفسه يغلق هاتفه بانفعال بعد مكالمة أخرى، يتحدث مع مدير قناة فضائية مهمة.

قال الوزير بحدة:

«ألم يحن الوقت لإسكات ذلك المذيع الوقح؟! لقد هاجمني وهاجم زملائي من رجال الأعمال وكأنه بطل شعبي. يريدنا أن نبكي على الهواء؟!».

ابتسم مدير القناة ابتسامة ساخرة، وقال:

«لا تقلق يا معالي الوزير، هذا المذيع تجاوز حدوده بالفعل. لقد قررنا إرساله في إجازة استجمام في إحدى الجزر المملوكة لنا، حتى لا

يسمع صوته أحد».

ارتسمتِ ابتسامة رضى على وجه الوزير، وقال بارتياح:

«ممتاز، ممتاز. وبالنسبة لحلقة الأسبوع القادم للسيد فارس البطريق، هل كل شيء جاهز؟».

أجاب مدير القناة بسرعة:

«كل شيء يسير وفق التعليمات يا فندم. السكريبت جاهز تمامًا».

سأل الوزير بلهجة مهتمة:

«وما هو عنوان الحلقة؟».

رد مدير القناة وهو يحاول إخفاء سخريته:

«العدالة وكيفية القضاء على...».

قاطعه الوزير دون أن يهتم بالتفاصيل:

«المهم أن يعرف الشعب الحقيقة. شعبنا عاطفي ويمتلك وعيًا كبيرًا. يجب أن يعلم أننا نعمل من أجلهم لتحقيق العدالة وإنهاء الفساد. الوطن أمانة في رقابكم، ونحن نعتمد عليكم».

ابتسم مدير القناة راضيًا، وقال:

«هذه بالفعل رسالة القناة يا معالي الوزير».

استدار الوزير بكرسيه موجهًا ظهره لمدير القناة، لينهي الحديث بنبرة واثقة، قائلًا:

«ما أنبلها من رسالة!»

الخواجة المصري

حمدي راويًا

(ثابت) بيه، يجلس على كرسيه الفاخر، ينفث دخان سيجاره الثمين وكأنّه بطل من أبطال السينما الأمريكية، وقال بفخر وتعالٍ:

«تصدق يا حمدي يا أخويا.. أنا دايمًا نفسي أخدم كل المصريين اللي أعرفهم بره. كله بثوابه بقى».

(حمدي)، وهو مستغرق في أحلامه الوردية، يرد وكأنّه قد سمع أعظم وحي نزل من السماء:

«ربنا يعينك ويباركلك يا ثابت بيه، ده أنا مش عارف أقولك إيه من كتر ما أنت جدع ووطني».

(ثابت) بيه، الذي اكتسب في الحارة لقب «الخواجة المصري»، مهاجر منذ عشرين عامًا إلى أمريكا، حيث صار من كبار الشخصيات في المجتمع المصري المغترب، أو على الأقل هكذا يُقال. الجميع يتحدث عن الدكتوراه التي حصل عليها في علم الفضاء والبيت الفخم الذي يمتلكه في نيويورك. لقد تزوج من أمريكية، لكنّه لم ينجب منها بعد، والشائعات تتنوع حول هذا الموضوع.

(حمدي) فجأة قرر أنّه قد حان الوقت لاستغلال فرصة الصداقة:

«ثابت بيه، ممكن خدمة؟».

(ثابت) بيه، الذي بدأ يشعر وكأنّه دبلوماسي مهم، يرد بثقة زائدة:

«أؤمر يا حمدي، خير؟».

(حمدي)، بنبرة حالمة وكأنّه على وشك أن يقدم طلب العمر:

«أنا كنت بفكر أزور أمريكا الشهر الجاي. ممكن أكون ضيفك كام يوم أنا والمدام؟ يعني نتفسح ونشوف حظنا هناك».

(ثابت) بيه، الذي كاد ينفجر ضاحكًا وكأنّه سمع أفضل نكتة في حياته:

«يا حمدي يا أخويا، أمريكا مش أي حد يدخلها كده! لازم تكون الأمور مضبوطة على الآخر».

لكن (حمدي)، وكأنّه يمتلك الورقة الرابحة، يقول بسرعة:

«ماتقلقش، كل الأوراق جاهزة».

(ثابت) بيه نظر إليه بدهشة لم يكن يتوقعها، ثم قال بصوت متحفظ.

«ممتاز... إمتى ناوي تسافر يا حمدي؟».

(حمدي)، بنبرة واثقة:

«في خلال شهر!».

(ثابت)، وهو ينهي الحديث بإيجاز حاسم:

«أهلًا وسهلًا، أمريكا هتنور بوجودك!».

عند وصول حمدي وزوجته إلى مطار نيويورك، بدت المدينة في نظرهما كما وصفها ثابت بيه في قصصه البراقة؛ الأبراج الشاهقة تلامس السماء، السيارات الفاخرة تتحرك بانسيابية، والأضواء الساطعة تملأ الأفق. كان حمدي يشد يد زوجته بحماس قائلًا:

"شفتي؟ دي أمريكا اللي طول عمرنا بنحلم بيها!"

ابتسمت زوجته بتردد، وقد بدأ القلق يتسلل إلى ملامحها، خاصة عندما لاحظت أن الحافلة التي كانا يستقلانها بدأت تتجه نحو مناطق تبدو أقل بريقًا. بدأت المباني تتحول من ناطحات السحاب إلى منازل متواضعة، والشوارع المزدحمة بالمارة والسيارات الفارهة إلى طرقات هادئة وأحياء سكنية بسيطة.

بعد رحلة استغرقت نحو ساعة من المطار، توقفت الحافلة في منطقة لا تتناسب أبدًا مع الصور التي كانا يرسمانها في مخيلتهما.

ألقى حمدي نظرة سريعة على عنوان ثابت، ثم قال بقلق متزايد:

"هو ده المكان بجد؟!"

اقتربت زوجته من النافذة ونظرت إلى الخارج بعينين مملوءتين بالدهشة، قائلة:

"إزاي يعني... ده شكله مش زي الحتة اللي ثابت باشا كان بيحكي عنها! "

أصر حمدي بحذر:

"يمكن يكون قريب من هنا... خلينا نشوف"

وبالفعل، ما أن وصلا إلى العنوان المحدد حتى وقفا أمام منزل متواضع للغاية، لا يشبه القصر الفخم الذي كان ثابت بيه يتحدث عنه. بدا المنزل قديمًا، بألوان باهتة وأثاث خارجي مهترئ. نظرت زوجة حمدي حولها بذهول، وقالت بلهجة ملؤها خيبة الأمل:

"هو ده القصر الكبير اللي كنا بنحلم بيه؟! ده شكله زي بيت في حي شعبي"

قبل أن يتمكن حمدي من الرد، فتح ثابت الباب مبتسمًا، وقال بحفاوة مبالغ فيها:

"أهلًا وسهلًا! حمد لله على سلامتكم!

تفضلا. العصير موجود والحلوى كمان!

ثم أضاف معتذرًا وهو يحاول أن يبدو واثقًا:

«المدام مش موجودة. سافرت لولاية أريزونا فجأة، ظروف طارئة».

زوجة (حمدي)، وهي تحاول أن تتعامل مع الوضع بلباقة:

«مفيش داعي للحرج. بلغها سلامنا..هي اسمها إيه؟»

تلعثم (ثابت) للحظة وكأنّه نسيَ اسم زوجته، ثم قال بسرعة:

«اسمها جوليا».

ثم قال سريعًا وهو يحاول تغيير الموضوع:

«أكيد أنتم مرهقين من السفر، جهزت لكم الأكل، استريحوا شوية لحد ما يجهز».

(حمدي)، محاولًا طمأنة (ثابت):

«مفيش داعي للإحراج يا ثابت، اعتبرنا في بيتنا».

لكن (ثابت)، الذي أصبح أكثر ارتباكًا، قال وهو يحاول تفادي الحديث عن تفاصيل حياته:

«مفيش مشاكل، أنا شغلي باليل».

في اليوم التالي، قرر حمدي وزوجته الخروج لتناول الطعام في أحد المطاعم المصرية. جلسا على طاولة متواضعة تفوح منها رائحة الفول والطعمية، وقالت زوجة حمدي بحماس:

«المطعم ده كأنَّه في قلب القاهرة! حتى الريحة مصرية أصيلة».

(حمدي)، مبتسمًا وهو يشعر ببعض الارتياح:

«اختاري اللي يعجبك يا حبيبتي».

لكن فجأة، بينما يقترب الجرسون حاملًا زجاجة مياه وكأسين، يُصدم (حمدي) برؤية غير متوقعة. الجرسون يقترب منهم بخطوات بطيئة، ووجهه يتحول إلى اللون الأحمر القاني. يقول الجرسون بصوت متردد يكاد لا يُسمَع:

«أهلًا بكم... تفضلوا قائمة الطعام..».

بعدما عاد حمدي وزوجته إلى مصر، بدأ يروي القصة لأصدقائه في الحارة. كانت ضحكاته هيستيرية وهو يحكي قائلًا:

«مش هتصدقوا مين كان الجرسون! الخواجة المصري نفسه، ثابت بيه، اللي كان بيقول عنده قصر في نيويورك!».

الضحك يعلو المكان، (وحمدي) يختتم القصة قائلًا:

«طلع شغال في مطعم فول وطعمية! دي المظاهر خدّاعة يا جماعة»

مشاعر

«هل يمكنك أن تعلمني كيفية استخدام الهاتف الجديد؟» سألتِ الأم بصوتٍ هادئ، لكن عينيها كانتا تحملان أكثر من مجرد سؤال. كان في نبرتها ارتباك خفيف، ليس فقط بسبب التكنولوجيا الجديدة، بل ربما بسبب الفجوة التي بدأتْ تتسع بينها وبين ابنها.

«فليكن، ولكن بسرعة، ليس لديّ الكثير من الوقت». قال الابن بينما كانتْ عيناه لا تزالان ملتصقتين بشاشة هاتفه.

نظرتْ إليه بخجل، خافتةً الكلمات في أعماقها، وكأنّها تتحدث لنفسها: «أريد فقط أن أتعلم... ليس لأجلي؛ بل لكي أبقى قريبة منك، ولو من بعيد».

أخذ الهاتف وبدأ في الشرح، كأنّه يؤدي واجبًا عاديًا ضمن مهامه اليومية المزدحمة. لكن كلماته، رغم وضوحها، غابتْ في ضجيج أفكارها. استسلمتْ لشرودها، وسافرتْ بعيدًا في الزمن، إلى تلك الأيام التي كانتْ فيه كل شيء في حياته.

كانتْ تلك الأيام التي شعرتْ فيها بالاكتمال لأول مرة حين

احتضنتْ مولودها الجديد بين ذراعيها. كان عالمها كله، صغيرًا بين يديها، ينبض بالحياة.

«حبيبي، سنتعلم اليوم الحروف»، قالتْ له بحنان وهي تحتضنه بقوة.

نظر إليها بعينيه الصغيرة المتسائلة، وكأنّ الكَون بأسره كان ينتظر إجابتها. سأل ببراءة: «ما هي الحروف، يا أمي؟».

ابتسمتْ تلك الابتسامة الخاصة بالأمهات، المليئة بالحب والصبر، وقالتْ: «هي ما نكتب بها يا حبيبي».

«نكتب ماذا؟» تساءل بعفوية.

"نكتب الكلمات» أجابتْ بحماسة.

«ولماذا نكتبها؟» تابع استفساره الطفولي.

توقفتْ لبرهة، وهي تحاول تبسيط هذا المفهوم العميق لطفلها. ثم قالتْ: «لكي نعبر بها عن مشاعرنا».

«وما هي المشاعر؟» سأل بصوت بريء لا يعرف حدود العالم بعد. نظرتْ إليه بعمق، وقالتْ: «هي ما نشعر به... مثل حبي لك، يا صغيري. هذه مشاعري تجاهك». ثم احتضنته بقوة، وقبّلتْ جبينه بحنان.

ضحك بفرح طفولي نقيّ، وقال: «وأنا أحبك يا أمي».

استفاقتْ من شرودها على صوت ابنها وهو يقول بلهجة سريعة: «ها قد أوضحتُ لك بعض الأشياء. سأتركك الآن، لديّ موعد مهم. انتظرينيلأكمل شرحي لك».

أعطاها الهاتف، ثم استدار ليرحل، تاركًا إياها وحدها مع شاشة الهاتف التي بدتْ باردة، خالية من أيّ حياة.

نظرتْ إلى الهاتف لبضع ثوانٍ، ثم رسمتْ على شفتيها ابتسامة صغيرة، وضعتِ الهاتف جانبًا ونهضتْ بسرعة، متجهة نحو غرفتها.

كانتْ تبحث عن شيء ما، شيء يبعث الدفء في روحها المتعبة. فتحتْ أدراجها القديمة، بحثتْ بين ذكريات قديمة. وأخيرًا، وجدته.. خطابًا قديمًا، ملوّثًا ببقع الزمن، كُتب بخط يد طفولي غير متقن، مع رسمة بسيطة لوردة: «أحبكِ يا أمي.. كل سنة وأنتِ طيبة».

احتضنتِ الخطاب بقوة، وكأنّها كانتْ تعانق قلبها، ودمعة خفيفة سقطتْ على خدها. رفعتْ عينيها نحو صورة ابنها المُعلّقة على الجدار، ثم همستْ بصوتٍ خافت:

«سأنتظرك يا بني»..

«سأظل أنتظرك، حتى نكون معًا كما كنّا».

الحلم

«الخيانة»:

(إحسان)، الأرملة ذات الخمسة والخمسين عامًا، تعيش وحيدة مع ذكرياتها. في تلك الليلة، رأتْ فيما يرى النائم زوجها الراحل يأتي نحوها، حاملًا ابنتهما بين ذراعيه. كانتِ الدماء تسيل من جسد الابنة، وزوجها ينظر إليها بعينين حزينتين. استيقظتْ (إحسان) فزعة على صوت جرس الباب يدق باستمرار. فتحتِ الباب بسرعة لتجد ابنتها منهارة، عيناها متورمتان من البكاء. شهقتْ (إحسان) وهي ترى حالة ابنتها: «ماذا حدث؟!».

ابنتها، بصوت متهدج ومكسور، أخبرتها الحقيقة المرة: «لقد اكتشفتُ خيانة زوجي.. إنّه مدمن مخدرات أيضًا.. لا أستطيع تحمله».

كان قلب (إحسان) يكاد ينفجر من الألم. لم يكن الأمر بالهيّن عليها أن ترى ابنتها بعد عام من الزواج وهي في هذه الحالة! شعرتْ بالعجز. جلستْ بجوار ابنتها، تحتضنها، تحاول تهدئتها وهي تتمتم: «كل شيء سيصبح على ما يرام».

مرتِ الساعات، وجاء (حليم)، جار (إحسان) القديم والحبيب

الذي لم يكن له نصيب معها. كان يعرف بأمر ابنتها، فطرق بابها وأطل برأسه قائلًا بلطف: «لا تقلقي يا إحسان، أنا هنا.. ما زلتُ الأخ والصديق.. سنجد حلًا لهذه المشكلة».

نظرتْ إليه (إحسان) بحسرة وألم، وقالتْ: «نحن ضعفاء يا حليم.. وليس لنا عَون».

ابتسم (حليم) بنظرة مليئة بالثقة، وقال: «إحسان، ألستِ واثقة فيّ؟».

نظرتْ إليه والدموع تتلألأ في عينيها: «كيف لك أن تسأل هذا؟ أنت الشخص الوحيد الذي أثق به».

أومأ برأسه مودعًا، ووعدها بأنّه سيجد الحل. عادتْ (إحسان) إلى غرفة نومها بعد مغادرته، وفتحتْ صندوق الذكريات الذي كانتْ تحتفظ فيه بكل أسرارها القديمة. أخرجتْ صور حبيبها القديم، وذكريات الأيام الخوالي. ولكن ما لفتَ انتباهها كان خطابًا قديمًا من زوجها المتوفى. لأول مرة تراه. كانتِ الكلمات فيه واضحة:

«سيأتي يوم تعود فيه ابنتك إليك، وقد تركتْ بيت زوجها. كوني عونًا لها.. ولا تذهبي إلى العراف».

ارتعش قلب (إحسان)، كيف له أن يتنبأ بهذا المصير؟! شعرت بالقلق وانتابها إحساس غريب.

«الوعد»:

بعد أسبوع، جاء (حليم) إلى (إحسان)، لكن القلق كان ينهشها. سألته بعيون متلهفة: «هل وجدتَ الحل؟».

أجابها (حليم) بهدوء، وقال: «نعم، الحل في العالم السفلي.. لقد سيطر على زوج ابنتك، ولكن هناك طريقة لاستعادته».

قاطعته (إحسان) وقد شعرتْ بالخوف والفضول يسيطران عليها: «ما هو هذا العالم السفلي؟».

ابتسم (حليم)، وقال: «لا تقلقي، ما علينا فعله هو الذهاب إلى الدكتور جعفر.. هو من يستطيع مساعدتنا».

ترددتْ (إحسان)، وسألتْ بتوجس: «أليس جعفر هذا هو العراف الذي كانوا يتحدثون عنه؟».

استنكر (حليم)، وقال: «من قال هذا؟! لا تصغي إلى الشائعات، إنّه رجل علمي، وموثوق».

نظرتْ إليه (إحسان) متذكرةً تحذير زوجها في الخطاب، وقالتْ بخوف: «لكنّي.. لستُ مطمئنة».

نظر (حليم) إلى صورة زوجها المعلقة على الحائط، وقال بابتسامة

غامضة: «ثقي فيّ يا إحسان.. لقد ساعدني من قبل، وليس لدينا حل آخر».

احتارتْ (إحسان) بين اتباع نصيحة (حليم) وبين كلمات زوجها الراحل التي كانتْ تتردد في ذهنها مرارًا. كان القرار صعبًا. زوجها المتوفى حذرها، لكن (حليم) واقف أمامها ويبدو واثقًا.

في النهاية، قررتْ أن تتبع (حليم)، فابنتها كانتْ تعاني، وكانتْ لا تزال تبحث عن أي خيط يساعدها في إنقاذها.

أخذ (حليم) ابنتها إلى الدكتور (جعفر)، وبعد فترة قصيرة عاد زوج ابنتها إلى رشده وأقلع عن المخدرات. فرحتْ (إحسان)، شكرتْ (جعفر)، وقدمتْ لـ (حليم) ما كان يتمنى.

«الحلم»:

لكن الحلم لم ينتهِ. في إحدى الليالي، عاد إليها زوجها المتوفى في المنام، يحمل ابنتهما مرة أخرى، والدم يسيل منها بغزارة. قال لها بصوت مليء بالعتاب: «الآن وقد ذهبتِ إلى العراف وتزوجتِ حليم، عادتْ إليّ ابنتي من جديد».

صرختْ (إحسان) بصوتٍ مدوٍّ، استيقظتْ على صوت (حليم)

بجانبها يسألها بقلق: «هل هو نفس الحلم؟».

أومأتْ برأسها والدموع تنهمر على وجهها: «نعم.. إنّه نفس الحلم!».

يرن الهاتف ليخبرها بخبر ينزل عليها كالصاعقة. لقد قُتلتْ ابنتها على يد زوجها بعد أن أُصيب بالجنون

تجمدتْ (إحسان) في مكانها، نظرتْ إلى (حليم) وقد أصابتها نوبة هيستيرية.

وأخذتْ تردد في انهيار: «ولكنّه لم يعُد حلمًا..».

لم يَعُدْ حلمًا!

الآن

«أنت قادر على اتخاذ القرار».

«لكنّه قرار صعب!».

«ليس قرارًا صعبًا، بل قرار حكيم».

«قتل نفسي ليس بالأمر الهيّن!».

«بل هو الحل. أنت تؤذي نفسك وتؤذي من حولك».

«لكنني لا أستطيع فعل هذا!».

«إلى متى هذا التردد؟! كن شجاعًا، أنت قوي وتستطيع».

«لكنني أخاف الله!».

«كلنا نخاف الله. لكن ألا ترى أنك تدمر حياة أهلك، زوجتك، وطفلك؟ صدقني، الحل هو أن تتخلص من نفسك بأقصى سرعة. هذا القرار هو الأفضل، ولن تندم».

«ربما أصبحتُ أفضل.. ألا يوجد حل آخر غير هذا؟».

«لقد جربت كل شيء، ولا أرى حلًا آخر».

«أرجوك... أعطني شيئًا حتى لا أشعر بالألم».

«لا يوجد. عليك أن تجرّب بنفسك لذة الموت».

«هل للموت لذة؟».

«نعم، إنّها رائعة».

صمتَ للحظات، ثم قال بصوتٍ خافت: «حسنًا.. سأفعل. الآن».

في المستشفى، الطبيب يربتُ على كتفها بلطف، صوته مليء بالحزن: «لقد حاولنا بكل جهدنا، لكن حالته ما زالتْ حرجة جدًا».

نظرتْ من خلف زجاج غرفة العناية المركزة، ودموعها تنساب بحرقة. منذ خمس سنوات تزوجته، لكنّها لم تعد قادرة على مواصلة الحياة معه. المخدرات سلبته روحه، أبعدته عن عالمها وعن طفلهما.

كان هو ينظر إليها، عيناه غارقتان في الندم والألم. بصوت ضعيف قال: «كنتُ فقط أريد أن أختفي».

نظرتْ إليه بحزن: «هل كان الانتحار هو الحل؟».

«نعم، فشلتُ كزوج وكأب. ماذا بقيَ لي؟».

مسحتْ دموعها بخفة، وقالتْ: «أنا في انتظارك عندما تشفى

بإذن الله». نظرة دهشة مرّتْ على وجهه المتعب: «لكن كنتِ تكرهينني.. كنتِ ترددين ذلك دائمًا».

هزّتْ رأسها بحزن: «لم أكرهك لحظة».

صوته خرج متهدجًا: «لماذا لم تخبريني بهذا من قبل؟».

نظرتْ إليه بعينين دامعتين: «كنتُ في انتظارأن تعود لنا».

تأوه من الألم، وصوته خرج مكسورًا: «الآن؟ لماذا الآن؟! كنتُ في أشد الحاجة لسماع هذا منك منذ زمن».

نظرتْ إليه برفق وهمستْ: «أرجوك، لا تتعب نفسك. أنا هنا، بجانبك، لن أتركك أبدًا».

توقف قليلًا، نظراته تتفحصها وكأنّما يدرك شيئًا للمرة الأولى. «الآن تقولين أنكِ لن تتركيني؟ بعد فوات الأوان».

لفظ أنفاسه الأخيرة بين يديها. انهارتْ باكية، تصرخ بألم: «أرجوك.. لا تتركني.. لا تتركني!».

وفي وسط صراخها، سمعتْ صوتًا ينبعث من داخلها، صوتًا هادئًا ولكنّه مخيف: «يجب أن تلحقي به. أنتِ من قتَلتَه».

ترددتْ وهي في حالة من الفزع: «لكنني لم أخبره أن ينتحر!».

«كبرياؤك وغرورك هما السبب.. دمه في رقبتك».

بدأ الهلع يتملكها، ترددتْ داخلها الكلمات كصفعات قاسية: «لا.. لستُ أنا السبب». أخذتْ تردد الاستعاذة مرارًا، تهرع مسرعة إلى خارج المستشفى. والصوت يتلاشى تدريجيًا، تاركًا خلفه هدوءًا مخيفًا.

مرتِ الأيام.

الآن أصبحتِ الصورة أكثر وضوحًا.

«أمي، أليستْ هذه صورة أبي؟».

نظرتْ إلى ابنتها بابتسامة حزينة: «نعم، حبيبتي سوف نعلقها حتى يظل معنا دائمًا، أليس كذلك؟».

- هل هو معنا الآن يا أمي؟

- نعم يا حبيبتي هو معنا.

نظرتِ الطفلة إلى الصورة، ثم إلى والدتها، وسألتْ ببراءة: «أتعنين صورته يا أمي؟».

نظرتْ إليها بعمق، واحتضنتها وقالتْ بصوتٍ مفعم بالعاطفة: «نعم يا حبيبتي..».

«صورته معنا الآن».

الأستاذ

الأستاذ كان حالة فريدة لا تتكرر. يصنع المعجزات وكأنّه يملك عصًا سحرية. الجميع يطيعه دون نقاش، لأنّه عبقري. ضحكته كانتْ كإشارة لبداية العظمة، وحينما يرفع يده، يبدأ السحر.

وقف في موقع التصوير وأشار بيده قائلًا: «ابدأوا التصوير! نفذوا الطوفان!». لكن المنتج اقترب منه بحذر، قائلًا بصوتٍ خافت: «يا أستاذ، المكان ضيق، يبدو أننا لن نتمكن من تنفيذ المشهد.. هناك خطر على حياة الممثلين، والتكلفة ستكون باهظة جدًا».

تغيّر وجه الأستاذ فجأة، وملأ الغضب عيناه. صرخ قائلًا: «إذن، ابحث عن مخرج غيري لتنفيذ العمل!».

حاول المنتج أن يهدئه: «لا تغضب يا أستاذ، أنا فقط أبدي رأيي و...».

قاطعه الأستاذ بصوت حاد كالسيف: «احتفظ برأيك لنفسك، ولا تعطّلني أكثر من ذلك».

لم يكن هناك مجال للنقاش. أمر المنتج بتنفيذ الطوفان، وكان الجميع يعرفون أنّ كلمة الأستاذ لا تُرد.

المأساة كانتْ كارثية، غرق اثنان وأصيب العشرات. جلس الأستاذ يقرأ تقرير الطب الشرعي ببرود، وكأنّه يتصفح جريدة صباحية. تمتم بصوتٍ خافت: «منتِج غبي.. لن أتعامل معه في المستقبل».

المنتِج في السجن الآن. أما الأستاذ؟ فهو في باريس يصور فيلمه الجديد.

في باريس، كان أحد الممثلين الجدد يعمل معه في فيلمه الجديد، وعيناه تلمعان بالشغف. التفتَ إلى زميله قائلًا: «أتمنى العمل معه.. هذا حلمي منذ زمن».

أجابه زميله بابتسامة مليئة بالإعجاب: «إنّه حالة فريدة لا تتكرر. يصنع المعجزات وكأنّه يملك عصًا سحرية ولهذا هو يستحق بجدارة لقب..

«الأستاذ».

الاختيار

زحام خانق يحيط بالمكان، أسوار عالية تغلق الأفق من كل الاتجاهات، الحراس يقفون كالأشباح، وجوههم شاحبة، وعيناهم فارغة من الحياة. والناس صراخهم وعويلهم يملأ الفضاء، كلهم يرددون نفس الكلمات وكأنّها تعويذة: «هذا هو طريق النجاة.. من بطش الطغاة».

الجميع يتدافع نحو الطريق المزدحم، يركضون بجنون، يتسابقون كأنّهم هاربون من الجحيم. بعضهم يجري بكل قوته، والبعض يمشي بخطوات متثاقلة، وآخرون يزحفون على الأرض وكأنّ الحياة تتسرب من أجسادهم.

تحدثني نفسي بصوت مضطرب: «ما الذي أتى بي إلى هنا؟»، أنظر حولي وكأنّني أبحث عن إجابة، لكن لا شيء سوى الوجوه المذعورة والصرخات المتقطعة.

أمامي، أرى نفقًا مظلمًا، غير أنّ هناك نورًا خافتًا في نهايته. شعرتُ بشيء غريب يثير فضولي: «ربما هذا النفق هو النجاة؟».

لكن الناس يسيرون في طريق آخر، مزدحم، مليء بالأجساد المتدافعة. ما زال صوت الصراخ والعويل يطاردني، ومع ذلك، الكل

يتجه نحو نفس المصير. وقفتُ في حيرة: ماذا أفعل؟ أيهما أختار؟

نظرتُ إلى النفق مجددًا، النور في نهايته لا يزال يشع بأمل غامض. لكنني أخاف.. أخاف أن أسير فيه وحدي. في هذه اللحظة، رأيتُ شخصًا آخر يقف بجواري، عيناه متجهة نحو النفق أيضًا. تبادلنا النظرات.. ربما يمكننا أن نسير فيه معًا؟

لم يتحرك، يبدو أنّه ينتظرني أن أبدأ.. وأنا؟ لم أتحرك أيضًا. تملؤنا النظرات بالخوف والتردد.

نظرنا إلى الخلف ورأينا الجموع تسير باندفاع نحو الطريق المزدحم. على الرغم من أنّهم يرون الحراس، إلّا أنّهم يتجهون دون تردد. الشخص الآخر بجانبي بدأ يتحرك ببطء نحوهم. شعرتُ بأنّ الاختيار أصبح أكثر صعوبة.

فليكن القرار الذهاب مع الجموع. نظرتُ إلى النفق للمرة الأخيرة، شعرتُ بشيء من الخوف والتردد، لكنني قررتُ أن أتبع الحشد. الزحام كان أشد مما توقعت. جسدي محاصر بين الأجساد المتدافعة، كأنني عالق في طوفان من الناس. فجأة، رأيتهم.. من يدخل الطريق يتم قطع أنفه! شعرت بالفزع: من هؤلاء؟ ثم أدركتُ الحقيقة الصادمة: إنهم نفس الطغاة! كيف لم أنتبه؟! لقد فررنا منهم لنقع في قبضتهم مرة أخرى.

يجب أن أهرب. بدأتُ أركض بسرعة، أبحث عن مخرج، لكن لا شيء سوى أسوار عالية تسد كل الاتجاهات. أسمع صوتًا يأتي من خلفي، صوت بارد مليء بالاستسلام: «لا ترهق نفسك. لا يوجد مفر ولا طريق للنجاة».

استدرتُ لأجد الشخص الذي كان يقف بجانبي سابقًا، نفس الشخص الذي تردد في دخول النفق معي. نظرتُ إليه بحزن عميق، لكنّه كان خليطًا من الأمل واليأس في آنٍ واحد، قلتُ له بصوت متهدج: «لنحاول أن نجد طريقًا للنجاة معًا».

ابتسم بتهكم، وقال: «كان هناك طريق للنجاة من قبل، ولكنّك لم تختره».

شعرتُ بالدهشة تجتاحني، أسأله بذهول: «من أنت؟».

نظر إليّ نظرة طويلة، ثم بدأ صوته يملأ المكان بصداه المتردد، وهو يختفي عن الأنظار:

«أنا مصيرك».

أقنعة

المشهد الرابع:

بعد ثلاثين عامًا، التقيا صدفة في الحديقة. كان الهدوء يملأ المكان، والأشجار تحيط بهما كأنّها تحمي سرّهما. تبادلا التحية وتحدثا عن حياتهما وأولادهما، لكن الكلمات كانتْ سطحية، كما لو أنّ شيئًا أثقل ظل يحوم فوقهما. بعد لحظة من الصمت، نظرتْ (ثريا) إلى (فوزي) بعمق، ثم سألته بهدوء: «هل تريده الآن؟».

رمقها (فوزي) باستغراب، متسائلًا: «أريد ماذا؟».

ابتسمتْ ابتسامة غامضة، وقالتْ: «قناعك».

ضحك (فوزي)، وكأنّ الضحكة تخفي شيئًا مؤلمًا من الماضي: «لقد ضاع منذ زمن بعيد».

نظرتْ إليه بثقة، وقالتْ: «لم يضع، لقد وجدتُه... واحتفظتُ به طوال السنين الماضية».

بدهشة تساءل: «ولماذا لم تعطيني إياه؟».

أجابته بهدوء: «لأنني رأيتُ أنك تعيش بدون الحاجة إليه. هل تريده الآن؟».

أخذ (فوزي) ينظر إلى السماء، غارقًا في أفكاره، وكأنّ الحياة تمر أمام عينيه: «ماذا لو كنتُ أرتديه طوال الوقت؟».

نظر إليها مرة أخرى بابتسامة مترددة، وقال: «وبالنسبة لقناعكِ.. هل تظنين أنكِ ما زلتِ بحاجة إليه؟».

ثم انفجرا سويًا يضحكان.. ضحكاتهما تملأ سماء الحديقة وسط ذهول المارة.

المشهد الثالث:

يجلسان في الحديقة نفسها، الموسيقى الهادئة تصدح في الخلفية. كان (فوزي) قد فقد قناعه منذ أيام قليلة، لكنّه شعر بشيء غريب، كأنّ حياته بدأتْ من جديد.

بصوت هادئ ومتفكر، سأل (فوزي): «هل حاولتِ يومًا أن تخلعي قناعك؟».

نظرتْ إليه (ثريا) بدهشة، وقالتْ بجدية: «لن أجرب هذا أبدًا، وأرجوك لا تفكر في أن تعيش حياتك دون قناع».

بدهشة رد (فوزي): «ولماذا؟».

أجابته بثقة: «لأنّك لن تستطيع العيش بدونه. الأقنعة هي ما تحمينا».

بغضب قال: «لقد فقدته، وأنا أشعر براحة لأول مرة».

قاطعتْ كلامه بحدة: «لكنني لا أشعر بالراحة معك الآن. لم تعد فوزي الذي أعرفه».

وقف (فوزي)، وقال بحزم: «أنا أفضل الآن. جربي أن تخلعي قناعك».

ارتبكتْ (ثريا)، وقالتْ بخوف: «لا أستطيع.. إنّه يحفظني من الألم».

اقترب منها فجأة، أمسك بذراعيها وحاول نزع قناعها. صرختْ وهي تحاول المقاومة: «لا أستطيع! من دون القناع سأكون ضعيفة».

احتضنها برفق، وقال: «لا، ستكونين أفضل. الأقنعة تجعلنا أضعف».

انهارتْ باكية، وقالتْ: «لكن الجميع يرتديها.. كيف أعيش بدونها؟».

أصرّ (فوزي): «لا يهم. الأفضل أن نعيش بلا أقنعة».

المشهد الثاني:

يقف (فوزي) أمام المرآة، يرتدي قناعًا أزرق باهتًا يغطي نصف وجهه، مزينًا بنجوم صغيرة، استعدادًا ليوم عمل آخر. بجانبه، كانتْ (ثريا) ترتدي قناعًا أحمر زاهيًا يغطي عينيها وأنفها، مزيّنًا بالورود والريش، مستعدة لبدء يومها.

كان المشوار اليومي إلى العمل جزءًا من روتين حياتهما. ركب (فوزي) السيارة متثائبًا، وقال: «يا له من مشوار طويل، لكن لا مفر منه».

جلستْ (ثريا) بجانبه، انطلقتِ السيارة، ومعها موسيقى اعتادا سماعها كل يوم. تبادلا الصمت بدلًا من الكلمات.

المشهد الأول:

إنّه يوم عرسهما!

وسط العائلة والأصدقاء.

الزينة في كل مكان.

والوجوه تزينها الأقنعة!

أحمد وبسنت

هما على متن الطائرة رقم ٥٤٢ المتجهة إلى ألمانيا. أصوات المطار من حولهما تبدو باهتة مقارنة بالضجيج الداخلي الذي يملأ رؤوسهما. جلس (أحمد) على كرسيه المتحرك، يحدق في المارة الذين يسرعون في خطواتهم، وكأنّهم يمتلكون العالم بين أيديهم. محدثًا نفسه: «يا ليتني أستطيع أن أكون مثلهم؛ أتحرك بحرية، أشعر بالأرض تحت قدميّ مرة أخرى!». حادث السيارة الذي تعرض له قبل عامين غيّر حياته للأبد. بتر الأطباءإحدى ساقيه، ولم يبقَ له سوى الأمل في أنّ يجد علاجًا جديدًا في ألمانيا.

لكنّه في تلك اللحظة، وسط ضجيج التفكير واليأس الذي كان يلتهمه، شعر بشيء جديد. ربما لم يكن الأمل مفقودًا تمامًا، ربما لا يزال هناك ضوء، ولو كان خافتًا.

على الجانب الآخر من الصالة، كانتْ (بسنت) تقف برفقة خاطبها، وكأنّها تحاول أن تحبس الزمن بين ذراعيه. عيناها مغرورقتان بالدموع، وقلبها مثقل بالألم والخوف: «لا أريد فراقك.. لكن القدر أكبر منّا. عملية القلب المفتوح هي فرصتي الوحيدة. سأعود إليك،

إن شاء الله، بقلب ينبض بحبك كما عهدته، إلى اللقاء، يا حبيب العمر. ربما اللقاء القادم يحمل لنا حياة جديدة».

جلسا على مقاعد الطائرة، الصمت يلفّ الأجواء، وكأنّ كل واحد منهما يحمل داخله حوارًا داخليًا لا ينتهي. بهدوء كسر «أحمد» الصمت، وسأل بصوت خافت: «ماذا أتى بكِ إلى ألمانيا؟».

نظرتْ (بسنت) إليه بعينين محملتين بالتعب والأمل، وأجابتْ بصوتٍ هامس: «باحثة عن قلب جديد.. حياتي بلا قلب.. ليستْ حياة». توقفتْ للحظة وكأنّ الكلمات تقاوم الخروج، ثم قالتْ بفضول: «وأنت؟».

أجاب بهدوء، وكأنّه يروي قصة يعرف تفاصيلها الجميع: «باحث عن ساق جديدة. حياتي بلا ساق توقفت».

في تلك اللحظة، تبادلا نظرات لم تكن مجرد نظرات، بل كانتْ رسائل مليئة بالفهم، بالتحدي، وبالأمل الذي ربما فقداه.

ابتسمتْ (بسنت) بشفتيها أولًا، ثم بعينيها: «أريد قلبك».

نظر إليها (أحمد) بدهشة خفيفة، ثم ابتسم بتلك الابتسامة التي تعبّر عن قبول التحدي: «وأنا أريد ساقك».

ارتفع صوتهما بالضحك، ضحكات ملأتِ الطائرة بأجواء من البهجة. وبصوت واحد، قالا في تناغم: «هكذا هي الحياة!».

مرتِ الأيام بعد تلك الرحلة، ولم يعرف أحد بالضبط ماذا حدث لـ (أحمد) و(بسنت) بعد وصولهما إلى ألمانيا. الحكايات عنهما تروى هنا وهناك.

يروي أحدهم أنّه شاهدهما يومًا في متنزه على الشاطئ، يركضان في مرح. بينما يقول آخر أنّه رآهما يمشيان في السوق جنبًا إلى جنب، يتشاركان الضحكات وكأنّ العالم بأسره لا يعرف معنى الألم.

ويروي أحدهم أنّه تحدث معهما في يوم مشمس وهما يوزعان الحلوى على الأطفال. سألهم عن حالهما، وما الذي حدث بعد وصولهم إلى ألمانيا. ابتسم (أحمد) بحب، ونظرتْ (بسنت) إليه بتلك النظرة التي لا تحمل سوى الامتنان للحياة. أجاباه معًا بصوت مليء بالثقة: «لقد وجدنا ما كنّا نبحث عنه».

«ما هو؟» سألهما بتعجب.

قالا بصوتٍ واحد:

«الأمل.. والإيمان».

آخر الدنيا

في الصالة المعتمة التي يملؤها الصمت، يتوسط حوض الأسماك الذي يبدو كجزيرة صغيرة وسط بحر من الأتربة والذكريات المتراكمة.

رائحة عفنة تملأ الأرجاء، تحمل في طياتها عبق الزمن المنسي. يجلس (كمال) أمام الحوض، يُطعم السمك، ممسكًا بزجاجة مياه، وعيناه المثقلتان بالحزن تراقبان السمكة الكبيرة التي تكاد لا تتحرك في الحوض الصغير. تحدثه نفسه: «كم تبدو الحياة قاسية حين تضيق بنا كما ضاق هذا الحوض بتلك السمكة.. ربما حان الوقت لفراقك».

يتذكر (كمال) كيف اشتراها مع هذا الحوض، يوم كانتِ الحياة تزخر بالأمل والفرح. والآن، ها هو اليوم يفارقها، وقلبه مثقل بالحزن والوحدة.

«كيف تحولت حياتي إلى حوض صغير، أين تلك الأيام التي كانتْ تعج بالضحكات والأمل؟».

حدّق في الحوض متأملًا الأسماك الصغيرة التي ما زالتْ تسبح فيه. «هل ستؤنس وحدتي بعد فراق سمكتي الكبيرة؟ أم أنّها

ستصبح مثلي، تنتظر دورها في هذا الحوض الصغير؟».

(كمال) اعتاد الجلوس وحيدًا بعيدًا عن صخب الأصدقاء والأهل، بعد تلك الحادثة المروّعة التي أخذتْ عائلته بعيدًا.

«لماذا لم أستطع إنقاذهم؟ لماذا تركتُ الموت ينتزعهم من بين يدي؟»، «الحياة بعدهم شقاء وعذاب!».

كانتْ هذه الأسئلة تلاحقه بلا رحمة.

متهيئًا لاستقبال لحظات صعبة لكنّها محتومة، يطلق عليها دائمًا: «الحقيقة الوحيدة في هذا الكون». يتذكر قول صديقه (يحيى) الذي كان دائمًا يردد: «عندما تذهب.. سيحبك الكل فجأة، لكن ماذا يفيد الحب بعد الرحيل؟».

صعبٌ هو الفراق، ولكنّه قدرنا. تحدثه نفسه وهو يضع سائلًا في زجاجة المياه، قبل أن يدق الباب إيذانًا بقدوم زائر غير متوقع. «من قد يأتي الآن؟ في هذا الوقت؟». يفتح الباب ليجد (يحيى)، يدخل بسرعة، مبتسمًا كعادته، يحمل صندوقًا من الحلوى.

«لقد أتيت على غير ميعاد، كعادتي أحب المفاجآت. كيف حالك؟ وكيف حال الأسماك؟» قال (يحيى) بابتسامة عريضة، غير مدرك لما يجول في خاطر (كمال).

(كمال) محدثًا نفسه: «كم أنت محظوظ يا يحيى، ما زلت قادرًا على الابتسام! لكن هل تبتسم حقًا؟ أم أنك تهرب من أوجاعك كما أهرب أنا؟».

تأثر (يحيى) من نفوق السمكة الكبيرة، وقال بصوت حزين: «ها قد أتتِ اللحظة التي كنتَ تخشاها يا صديقي! ولكنّها عادة الأسماك، تموت بعد الأكل الكثير».

يرد (كمال) بلا اكتراث: «الماء الذي كان يجب أن يحييها قتلها».

يضحك (يحيى) بصوت عالٍ، ملوحًا بيده: «الماء سر الحياة يا صديقي. أظن الماء لا يقتل. إن ما يضاف إلى الماء هو الذي يقتل!».. «ألا تسقيني شيئًا أشربه؟». (كمال) محدثًا نفسه: «كم تبدو الحياة بسيطة في عينيك يا يحيى، لكنك لا تعرف كيف يمكن للأشياء الصغيرة أن تصبح قاتلة».

يومئ (كمال) برأسه، قائلًا: «نعم، صدقت. يسعدني بالطبع مجيئك يا يحيى، ولكن أخبرني، ما الذي أتى بك اليوم؟».

(كمال) محدثًا نفسه: «هل جئت لتقول لي وداعًا دون أن تدرك ذلك؟ أم أنك تشعر بما أشعر به؟».

(يحيى) مقبلًا نحوه، حاملًا صندوق الحلوى، يقول: «كعادتك تنسى الشهور والأيام.. كل عام وأنت بخير، اليوم يوم ميلادك».

يبتسم (كمال) ابتسامة خفيفة، غير مصدق سبب مجيء (يحيى) كما أخبره. يأخذ قطعة من الحلوى، ويضعها في جيبه، قائلًا لـ (يحيى): «غريب أمر هذه الدنيا.. لا أحد تذكر يوم ميلادي إلا أنت».

متنهدًا، يضع زجاجة المياه على الطاولة، ناظرًا إلى الأجندة المعلقة على الحائط: «نعم، هو كذلك.. إنّه يوم ميلادي».

ثم يوجه حديثه بهدوء إلى (يحيى): «دعنا من يوم ميلادي. هلّا أخبرتني عن جديد لديك؟».

(يحيى) متهكمًا: «مثل ماذا؟ لا جديد.. لا جديد».

(كمال) محدثًا نفسه: «تمامًا كما توقعت. الحياة تتحرك حولنا ونحن نبقى في أماكننا، نجتر أحزاننا ونتظاهر بالقوة».

(كمال)، باهتمام ملحوظ: «لقاء الأبناء».. «ألا تشتاق إليهم كما أشتاق لعائلتي؟ أم أنّ الفراق قد أصبح عادة لا نشعر بآلامها بعد الآن؟».

احمر وجه (يحيى)، قائلًا بسرعة: «أرجوك، لا تحدثني في هذا الموضوع».

(كمال) محدثًا نفسه: «لماذا ترفض الحديث عنهم؟ هل تخشى مواجهة الألم؟ أم أنّك تخشى مواجهة نفسك؟».

(كمال)، مستفسرًا: «لماذا يا يحيى؟! أنت لم تحاول! لماذا نترك الفراق يحكم حياتنا؟».

يقاطعه (يحيى) بسرعة، وقد ازداد وجهه احمرارًا: «أنا لا أعلم عنهم شيئًا. ولا أريد الذهاب إلى أحد».

(كمال) محدثًا نفسه: «الرفض.. كم هو مألوف هذا الشعور، الهروب من المواجهة، الهروب من الحقيقة. لكن إلى متى يا يحيى؟».

ينظر (كمال) إليه واضعًا زجاجة الماء على الطاولة بجانب (يحيى).

بدا (يحيى) مضطربًا، ملوّحًا بيده، موجّهًا حديثه إلى (كمال) بلهجة شديدة: «وأنت تعلم جيدًا أنّهم قد تركوني لوحدي وذهبوا، ولم تفعل شيئًا.. لقد خذلتني كما خذلني الجميع».

(كمال) محدثًا نفسه: «ألم نخذَل جميعًا يا يحيى؟ ألم نخون أنفسنا حين تركنا الخوف يسيطر علينا؟».

يجيبه (كمال) بهدوء: «لا.. لم يتركوك.. أنت الذي تركتهم وجعلتهم يموتون من ألم الفراق!».

(كمال) محدثًا نفسه: «الفراق هو اختيار، يا يحيى، لكننا لم نكن شجعانًا بما يكفي لمواجهة هذا الاختيار».

يجيبه (يحيى) صارخًا: «لا تقل ذلك.. أنت لا تعلم شيئًا... كف عن هذا الهراء.. أرجوك».

(كمال) محدثًا نفسه: «الهروب.. الهروب هو ما نعرفه؛ لأنّ الحقيقة مرعبة أكثر مما نتحمل».

ينظر (كمال) إلى زجاجة الماء، موجهًا كلامه إلى (يحيى): «إلى متى الهرب؟!»، «الهرب لا ينقذنا من شيء يا يحيى، بل يغرقنا أكثر في الظلام».

يجيبه (يحيى) بصوت عالٍ: «أنا لا أهرب.. هم الذين ذهبوا بعيدًا!».

(كمال) محدثًا نفسه: «لكن هل ذهبوا حقًا؟ أم أننا الذين ابتعدنا عنهم، غرقنا في وحدتنا ونسينا كيف نعيش؟».

(كمال)، بنبرة حازمة: «إنّهم ذهبوا حتى تعلم قيمتهم في حياتك!».

(كمال) محدثًا نفسه: «كان فراقهم درسًا قاسيًا لنعرف كم كانوا مهمين! لماذا لا نعترف بذلك قبل أن نفقد كل شيء؟».

(يحيى) ينظر إلى (كمال) بريبة، يتجه إلى مقعد ليجلس عليه، قائلًا بفتور: «ربما.. ولكن لا جدوى من هذا الحديث الآن».

(كمال) محدثًا نفسه: «لا جدوى.. كم هي قاسية هذه الكلمات! كأنّنا نستسلم قبل أن نحاول».

(كمال)، بحماس: «لماذا؟ ألا تحب أن تراهم؟»، «ألا تشتاق إليهم يا يحيى؟ ألا تشتاق لتلك اللحظات التي كانتْ تجمعكم؟».

(يحيى) يحاول إخفاء شغفه، مترددًا في الإجابة، قائلًا في ألمٍ لا يخلو من السعادة: «بلى.. ولكن كيف؟»، «كيف يمكنني أن أواجههم بعد كل هذا الفراق؟ هل سيقبلونني من جديد؟ هل سأتمكن من مواجهتهم؟».

(كمال)، مجيبًا بثقة: «إنّها مهمتي.. ألا تعلم أنّي أستطيع؟!»، «أستطيع أن أساعدك يا يحيى، لكن عليك أن تكون شجاعًا بما يكفي لتقبل المساعدة».

(يحيى)، جالسًا على المقعد، يقول باستسلام: «بلى.. ولكنّي خائف! هل ستأتي معي؟».

(كمال) محدثًا نفسه: «الخوف.. كم هو مؤلم أن نخاف من مواجهة ما نحب».

يجيبه (كمال) مبتسمًا: «هذه الرحلة عليك أن تقوم بها وحدك يا يحيى. أنا هنا لأدعمك، لكنّك أنت من يجب أن يخطو الخطوة الأولى».

(يحيى)، متلعثمًا: «ولكنّي..»، «ولكنّي لستُ مستعدًا.. هل يمكنني أن أفعل هذا؟ هل يمكنني أن أواجه الحقيقة بعد كل هذا الوقت؟».

(كمال)، ممسكًا يد (يحيى) بعنف: «لا وقت للتردد يا يحيى. الحقيقة لن تنتظرك إلى الأبد».

يجيبه (يحيى) مضطربًا: «لكنّي غير مستعد!».

يجيبه (كمال) ضاحكًا في هدوء: «قليلون، المستعدون في هذه الدنيا».

(كمال) محدثًا نفسه: «لا أحد منّا مستعد يا يحيى، لكننا نمضي قدمًا رغم ذلك؛ لأنّ الحياة لا تنتظر».

ينظر (كمال) إلى حوض الأسماك، ثم إلى الحلوى التي أحضرها (يحيى). كان (يحيى) يبدو هزيلًا، ضعيفًا. يشرب (يحيى) من زجاجة المياه التي وضعها (كمال) على الطاولة، ثم يستلقي على ظهره. ينظر إليه (كمال) في شفقة، وقد احمرتْ عيناه. يميل نحوه، هامسًا في أذنه: «ما الذي أتى بك اليوم؟! قل لي الحقيقة».

ينظر إليه (يحيى)، وقد زاغتْ عيناه واصفر وجهه، قائلًا بصعوبة: «لقد أتيت إليك.. حتى أذهب إلى...».

(كمال)، ملحًا في السؤال، محاولًا سماع صوت (يحيى): «تذهب إلى أين يا يحيى؟ إلى أين؟»، «أخبرني يا يحيى، هل تبحث عن نهاية أم بداية جديدة؟».

يرد (يحيى)، بصوت متقطع: «إلى.. آخر الدنيا..»، «آخر الدنيا..».

قالها (يحيى)، ثم وقع على الأرض مغشيًا عليه. ينظر (كمال) إلى (يحيى)، وقد بدا ساكنًا، لا يتحرك في ثبات مخيف.

يتمتم (كمال) بصوت خافت، وكأنه يتحدث إلى روحه: «ألا وقد قلتها.. فقد ذهبت إليها».

«إلى آخر الدنيا».

السيرك

في عالم السيرك؛ حيث تمتزج الأوهام بالواقع، وتتحول الحياة إلى مسرحية أبدية، يتحول الحيوان إلى كائن مسعور، والإنسان يضيع في زوايا النسيان. كان السيرك يومًا مركزًا للأحلام، لكنّه الآن أصبح ذكرى مليئة بالحكايات والأسرار، وحاضرًا يشهد عزوف الجمهور عن الحضور.

(ذكي الأعرج)، قائد السيرك بلا منازع، كان يتباهى بقوته الخارقة أمام الجميع. كل أسبوع، كان يحمل الأثقال، معلنًا عن قدرته الفريدة. ومع كل عرض، كان أتباعه يقفون مشدوهين، يصفقون بحماس، ويهتفون باسمه.

بعد كل عرض، كان (ذكي الأعرج) يصعد إلى المنصة ويبدأ خطبته المعتادة: «اليوم هو يوم عظيم في تاريخكم.. هأنا قد حققتُ رقمًا قياسيًا جديدًا. لقد خلقني الله خارقًا، قويًا شديد البأس.. أنتم في حمايتي، والسيرك ملكنا ولن نتركه أبدًا.. أنتم أهلي وقومي، أعرفكم جيدًا.. والسيرك سيظل الأكبر والأعظم ما دمنا يدًا واحدة.. أعدكم بذلك».

كانتْ هذه الكلمات تتكرر كل أسبوع، تسكن في آذان أتباعه،

تنشر فيهم شعورًا بالأمان. كانوا يهتفون باسمه في كل مرة، «يحيا ذكي الأعرج! يحيا ذكي الأعرج!»، و(ذكي) يشعر بالزهو وهو يستمع للهتاف.

لكن تلك الابتسامة العريضة التي كانتْ تزين وجهه، تلاشتْ فجأة عندما ظهر في الأفق طائرٌ ضخم. ذعر (ذكي)، وصرخ: «أمسكوه! أمسكوه! لا تفلتوه هذه المرة.. إنّه النسر!».

كان النسر قد أصبح أسطورة في السيرك، يتناقل الناس عنه قصصًا مختلفة. البعض يقول أنّه جاء من سيرك آخر، بينما يقول آخرون أنّه كان من أهل السيرك لكنّه فر هاربًا عندما حدثتِ المجاعة.

حلّق النسر بسرعة فائقة، وكأنّه يحمل معه قوة الطبيعة نفسها. انقضّ على الأثقال الملقاة على الأرض، ورفعها بخفة لم يكن أحد يتوقعها. حاول القوم اللحاق به، لكن النسر ارتفع في السماء بعيدًا عنهم، ثم ألقى بالأثقال مباشرة على رأس (ذكي).

سقط (ذكي)، فاقدًا توازنه، وتجمعتْ حوله التساؤلات. «كيف للنسر أن يحمل ما ادّعى ذكي أنّه لا يقدر عليه إلا هو؟ كيف نصدق الآن أنّ ذكي هو البطل الخارق؟».

لكن فجأة، صدر صوت من بعيد، من فتى صغير قائلًا: «وما لنا لا نأخذ النسر ونروضه حتى يكون عونًا لنا بدلًا من تركه خارج

السيرك؟! نحن في حاجة إلى نسر مثله. إنّه قوي وسريع الحركة. ألا ترون أنّ معظم حيوانات السيرك قد أصابها السعار وفي طريقها إلى الهلاك؟!».

وسط هذا الارتباك، تقدّم البلياتشو؛ شخصية كان الجميع يضحكون على حركاتها السخيفة، ولكنّه اليوم اتخذ نبرة جدية وهو يقول: «يا أهل السيرك، إنّ هذا النسر ليس سوى أداة بيد أعدائنا.. أعداء النجاح. لقد أرسلوه ليزرع الشك بيننا.. لا تنخدعوا به! حافظوا على وحدتكم، وكونوا يدًا واحدة مع قائدكم ذكي الأعرج.. لن نستسلم أبدًا!».

بدأ البلياتشو يقفز بأفعاله البهلوانية، داعيًا الجميع للهتاف: «حياتنا فداء للأعرج! حياتنا فداء للأعرج!».

رن الهتاف في آذان (ذكي)، وكان يحاول بجهد أن يتغلب على الدوار، ثم وقف مجددًا، محاولًا إظهار قوته التي كانتْ قد اهتزتْ. صرخ بأتباعه: «لا تستمعوا لمن يشكك في قوتي! النسر هو العدو.. والفتى الذي يتحدث عن ترويضه قد ضلّ. ضعوه في قفص الأسود، فهي لم تأكل منذ شهور!».

حمل (ذكي) الأثقال مجددًا، وأتباعه يهتفون باسمه، «يحيا ذكي الأعرج! يحيا ذكي البطل!».

وُضع الفتى في قفص الأسود..

الأسود نهشتْ جسد الفتى وقضتْ عليه.

لم يمر وقت طويل حتى أصاب الأسود السعار.

أمّا الفتى..

فقد أصبح حرًا.

طائرًا حرًا.

أصبح نسرًا!

الديناصورات!

كان الجميع يؤكدون أنّ (أحمد) يعرف السر. لم يكن أحد يشك في قدراته، فهو الخبير والمجرب، الرجل الذي يحمل بين يديه مفاتيح المعرفة. كانوا يسألونه باستمرار: «ما هو السر؟». لكن الحقيقة هي أنّ (أحمد) قضى عمره بأكمله باحثًا عن هذا السر الذي يتحدثون عنه.

كان (أحمد) يمتلك طائرة وكتابًا، لكن حبه للمعرفة وتعلقه بالديناصورات دفعه إلى تركهما جانبًا. ركن طائرته، ووضع كتابه على الرف، وانطلق بكل شغف وراء الأمل في عالم الديناصورات. أصبح هوسه بالديناصورات يسيطر على حياته، يقضي سنوات طويلة بينهم، يتعلم منهم ويعلمهم، مقتنعًا أنّ الديناصور هو الوحيد الذي يمتلك السر الذي يبحث عنه.

كان (أحمد) يتساءل في داخله: «كيف تعيش هذه المخلوقات الضخمة؟ وكيف يمكن لديناصور أن يعرف الطيران؟». عاش بين الأساطير والأوهام، يغوص في خيالاته، محاولًا فك رموز هذه الكائنات القديمة.

مرتْ سنوات طويلة أو قصيرة، لا يهم. في يوم من الأيام، وجد

(أحمد) نفسه يتساءل: «ماذا تعلمتُ من الديناصورات؟». صدى السؤال يتردد في عقله، ونفسه تجيب: «ربما لا شيء، وربما كل شيء». هل ضاع عمره هباءً؟ أم أنّه أخيرًا وجد السر الذي طالما سعى إليه؟ ربما السر قد يكون مختبئًا في كتابه وطائرته التي أهملها منذ زمن بعيد.

قرر أن يعود إلى كتابه وطيارته، عازمًا على البحث عن السر مرة أخرى. وبينما كان في طريق العودة، رأى السماء وكأنّها غاضبة. وحده فقط استطاع أن يرى هذا الغضب. أسرع إلى بيته، ليجد الدفء ينتظره هناك، لكن الألم كان جزءًا من حكايته. فقد أدرك حينها أنّه فقد كتابه وطيارته.

وقف (أحمد) عند نافذة بيته، ينظر إلى الناس في الخارج. كان الرعد يزمجر، والبرق يشق السماء، والمطر يتساقط بغزارة.

رفع رأسه نحو السماء، وإذا به يرى ديناصوره يعود إليه، حاملًا طائرته ومعه كتابه..

الكتاب الذي يحتوي على حكايته..

ومعه السر.

شمس وقمر

استيقظتِ الشمس، كأنّها ترفع حجابها الذهبي لتكشف عن وجه يوم جديد، مليء بوعدٍ مشرقٍ ومستقبلٍ يقترب بخطى واثقة.

- لماذا تستيقظ؟

- حتى أرى نور الشمس.

- وما الذي يحمله هذا النور لك؟

- الحقيقة.

- الحقيقة؟! أين هي الحقيقة؟! لقد تاهتْ في الظلمات.

- ربما، ولكن قد حان وقت الاستيقاظ.

- لا جدوى! ففي كل مرة أفتح عينيّ، تكون الشمس قد رحلتْ وغابتْ خلف الأفق.

- إلى متى ستبقى نائمًا؟

- سأظل نائمًا حتى تكُف الشمس عن الظهور.. أو حتى تجدني الحقيقة بين الظلمات.

يأتي البحر برزق العباد، يهديهم نعمه بصوت الأمواج الهادرة. في سماء النهار الزرقاء، تحلق الطيور بحرية، تنظر من علٍ إلى الأرض حيث تتراقص الأشجار والزهور على ألحان الرياح، وكأنّ الحياة بأسرها تشارك في سيمفونية الوجود. كل شيء يمضي، والبشر يسيرون في شوارع الحياة، محملين بذاكرة آدم وحواء وشجرة الخلد، يحملون بين قلوبهم قصصًا منسوجة بخيوط الخلود والمصير.

وتشرق الشمس مرة أخرى، بشموخ لا يتزعزع. تنير الأرض بنورها وتزرع بذور الأمل في قلوب منهكة. وحين يحين الغروب، تسلّم الشمس رسالتها للقمر، ليضيء الليل بسحره وغموضه.

لمن فاتته لحظات الشروق، فلينتظر مجيء القمر؛ ففي سكون الليل، تتلألأ النجوم كأوفياء يروون قصة النهار.

وشمس النهار؟ ما زالتْ هناك، تنتظر فرصة أخرى لتعود.

عالم خيالي

تسلل بخفة إلى أحد المحلات، وكأنه يخشى أن يُكتشف. كانتْ عيناه تتجولان في المكان حتى توقفتا عند شيء موجود في وسط المحل. اقترب بخطوات بطيئة، وتحسس تلك الأزرار المرتبة بعناية. كان هناك ثمانية وثمانون مفتاحًا، بعضها أبيض وبعضها أسود. رقم مميز، يحمل في طياته معنى خاصًا.

بدأ يضغط على المفاتيح بصورة عشوائية، محدثًا أصواتًا تسللتْ إلى قلبه ولامسته بعمق. لم يكن يتوقع أنّ تلك النغمات ستشعل في داخله شرارة من المشاعر والأحلام.

انتبه صاحب المحل إلى وجوده. رفع حاجبيه باضطراب، محاولًا أن يتفحصه بدقة أكبر. كان هناك شيء في هذا الزائر الغريب. لم يكن يريد أن يترك المكان، وكأنّ قوة خفية تربطه بهذا الشيء.

كان يستغرق في النظر إلى المفاتيح والإحساس بها، وكأنّها تفتح له أبواب عالم خيالي من نسجه وصنعه. عالم حيث يمكنه أن يهرب من الواقع ويعيش في مكان لا يعرف فيه سوى الموسيقى والنغمات.

«يا أستاذ.. أتريد شراءه؟» جاء صوت البائع ليقطع خيوط الحلم.

انتبه فجأة، كمن استفاق من حلم جميل، ونظر إلى البائع بابتسامة هادئة. «لا، أشكرك». قالها برقة، ثم انصرف، وما زال صدى الصوت يتردد في أذنيه، كما لو أنّ الموسيقى لم تغادر قلبه بعد.

انتبه. فالقطار لا يرجع إلى الخلف

نزلتْ من القطار، وحين وطأتْ قدماها الأرض، اجتاحها حزن شديد. شعرتْ وكأنّها قد تركت وراءها حظها وفرصتها الوحيدة، فرصة لن تعود.

مرتِ الأيام، وتوالتِ السنين، والحياة لم تبخل عليها بالدروس. تعلمتِ الكثير، ولكن هناك شيء واحد لم تستطع نسيانه. لم تنسَ القطار.. ولم تنسَ تلك المشاعر المختلطة بين الأمل واليأس التي عايشتها على مقاعده. لم تنسَ محطات حياتها الضائعة، تلك اللحظات التي شعرتْ فيها بأنّ الطريق قد تاه منها. لكنّها أدركتْ أنّ هناك شيئًا أكثر مرارة من تجاهل رغباتها، ألا وهو الندم على ما فات. تنظر إلى حاضرها الآن، وتتساءل: «هل أخطأتُ في اختيار محطة النزول؟ أم أنّ الصواب كان حليفها؟». ورغم كل ما تعلَّمته، ما زال ينتابها ذلك الشعور الغريب؛ شعور بأنّ هناك شيئًا ينقصها..

شيئًا كان لها..

شيئًا مختبئًا في محطة لم تصل إليها قط.

أريد عصيرًا

كان (أحمد)، ذو الأربعة أعوام، يمسك يد أبيه بقوة، صارخًا بصوت متقطع بينما تجمعتْ دموعه في عينيه اللامعتين: «أريد عصيرًا».

«أريده الآن!».

مرتْ أربعون عامًا..

(أحمد)؛ الذي أصبح الآن رجلاً ناضجًا، يحمل علبة الدواء، ويمزج الدواء بقطرات من العسل ليخفف طعمه المر. جلس بجوار والده ليعطيه الدواء، الوالد الذي أصبحتْ عيناه ضيقتين وكأنّهما تغلقان على ذكريات ماضية، بينما همس بصوت مبحوح ومتهالك: «اجلس معي.. لا تتركني».

جلس (أحمد) بحذر، محاولًا تهدئة خوف والده من السقوط في سبات لا عودة منه. فجأة، التفتَ إليه والده بنظرة مليئة بالريبة، وقال بصوتٍ هادئ ولكنّه غير واثق: «من أنت؟».

شعر (أحمد) بغصة تخنق قلبه: «أنا ابنك، يا أبي.. أنسيتني؟».

لكنّه لم يحصل على أيّ رد سوى نظرات فارغة، مشوبة بالارتباك،

وكأنّ ذاكرة والده كانتْ تتلاشى تدريجيًا. أعاد الأب سؤاله مرة أخرى: «من أنت؟ لماذا أنت هنا؟».

أجاب (أحمد) بتنهيدة مليئة بالأسى: «أنا ابنك، أحمد».

تفاجأ الأب وكأنّها المرة الأولى التي يسمع فيها هذا الاسم: «أحمد؟ كم عمرك؟».

(أحمد)؛ الذي شعر بأنّ كل كلمة كانتْ تسحب جزءًا من قلبه، أجاب: «٤٤ عامًا يا أبي». وتابع بسؤال يملؤه الألم: «وأنت يا أبي، كم عمرك؟».

توقف الأب للحظة، ناظرًا نحو السماء كما لو كان يبحث عن الإجابة بين الغيوم، لكنّه لم ينطق بكلمة. كرر أحمد السؤال بصوت مشوب بالقلق: «أبي، لقد بلغتَ ٨٤ عامًا».

لكنّ الأب؛ الذي كان قد انسحب إلى عالم آخر، أمسك بالوسادة وحاول أن يغط في نومه. في تلك اللحظة،أخذ (أحمد) يشاهد ابنه الصغير يلعب في الحديقة، يبحث عن القطة التي اختفتْ خلف الأشجار.

عاد (أحمد) إلى والده مجددًا، محاولًا كسر الصمت الثقيل: «أبي، هل تعرف من أحضرتَ معي اليوم؟».

نظر الأب إليه بعيون مليئة بالاهتمام، وقال: «من؟».

ابتسم (أحمد) وأجاب بلطف: «إنّه حفيدك. لم تره منذ فترة طويلة، انظر إليه كيف كبر.. إنّه يشبهك كثيرًا».

اقترب الطفل بخطواته الصغيرة من جدّه، واحتضنه برفق، مداعبًا لحيته الرمادية بإحدى يديه، بينما كان يمسك في اليد الأخرى بعلبة عصير. سأل الجد بصوت خافت: «ما اسمك؟».

أجاب الطفل بسرعة وبدون تردد: «كريم أحمد».

ابتسم الجد ابتسامة خفيفة، وكأنّ تلك الكلمات أيقظتْ ذكرى ضائعة.

بينما (أحمد) يراقب المشهد بشعور من الراحة، أخبر ابنه بحنان: «تعامل مع جدك بلطف.. سأذهب لإحضار أختك من المدرسة، وسأعود سريعًا».

ينظر (أحمد) إلى أبيه وقد بدا غير ملتفتًا إليه مبقيًا النظر إلى حفيده باهتمام بالغ.

همّ (أحمد) بالانصراف، لكن أثناء خروجه لركوب سيارته سمع صوت ارتطام على الأرض وصراخ ابنه. ركض إلى الحديقة بسرعة، ليجد والده واقعًا على الأرض، وابنه يبكي بجواره.

توجه إلى ابنه في انفعال قائلًا: «ماذا حدث؟».

يجيبه ابنه باكيًا:

«لقد حاول جدي أن يأخذ العصير مني. إنّه عصيري..لن يأخذه!».

(أحمد) حاملًا أباه ليعيده إلى مكانه سائلًا إياه في قلقٍ بالغ:

«أبي.. هل أنت بخير؟».

الأب ناظرًا إلى الأرض، قائلًا:

«لا شيء.. الحمد الله».

(أحمد) مبتسمًا قائلًا في شفقة:

«الحمد لله.. لقد أفزعني وقوعك على الأرض.. لماذا لم تخبرني أنك تريد عصيرًا؟».

يرفع الأب رأسه ببطء وقد احمرتْ عيناه ناظرًا إلى ابنه بخجل قائلًا:

«أريد عصيرًا».

«أريده الآن».

خلف مصنع الكراسي

«أحداث هذه القصة من وحي خيال المؤلف، وأيّ تشابه بينها وبين الواقع في الأحداث أو الأشخاص هو محض مصادفة!».

زحام مروري خانق، سيارات الشرطة تطوق المكان بينما يتعرق المارة على الأرصفة. حواجز، كاميرات.. إنّه حدث جلل: إنّه ميعاد زيارة الرئيس لمصنع الكراسي الجديد. الرئيس يدخل بخطوات عسكرية مدروسة، ترافقه كتيبة من الحراس الشخصيين. ينظر إلى الجموع بنظرة اعتزاز، ثم يرفع حاجبه بتساؤل زائف ويسأل:

«أين الوزير؟!».

يهرع إليه الوزير، مفعمًا بالحماس، ويبدأ بشرح مفصل كأنّه يقدم برنامجًا وثائقيًا:

«سيدي الرئيس، بفضل توجيهاتك الحكيمة، أنجزنا مصنع الكراسي في زمن قياسي!».

الرئيس يبتسم بغرور وهو يقول:

«بالطبع، مصنع الكراسي هو أولويتنا الوطنية الكبرى. لقد وفقني الله لخدمة هذا الشعب العريق. (اللي بيستاهل أحسن كراسي)».

الوزير، وقد فاضتْ عيونه بدموع السعادة، يرد:

الشعب محظوظ بحكمك الرشيد، سيادة الرئيس. كل كرسي يحمل لمسة من حكمتك، وكأنّك وضعتَ آخر مسمار بيديك العظيمة.

بعد ساعات من التصفيق والاحتفالات.

يجلس الرئيس في مكتبه الفخم. مكتبه كأنّه عرش في قلعة ساحرة؛ حيث تصطف حوله كؤوس الجوائز والأوسمة.

فجأة، يدخل السكرتير الخاص قائلًا في خوف وتردد:

«سيدي الرئيس. توجد مظاهرات كثيرة في أرجاء البلاد. المتظاهرون يطالبون بإسقاط النظام».

الرئيس ينظر إليه بتعجب. يتجه نحو هاتفه الخاص، ويتفقده بحذر قائلا بلا مبالاة:

«أين حراسي الخاص؟! أين هم؟! ليأتوا على الفور».

ثم ينظر إلى سكرتيره قائلًا في حزم محاولًا إخفاء توتره:

«كيف حدثتْ هذه المظاهرات؟ أليس لكل مواطن كرسي! هل الكراسي غير مريحة؟».

السكرتير يرد بهدوء يكاد يكون غير لائق مع الموقف:

«لا تقلق سيادة الرئيس. إنّهم قلة من المغرضين المخربين سيتم احتواء الموقف في أسرع وقت».

الرئيس يحاول التظاهر بالثبات ويقول بصوت أشبه بالممثلين في الدراما التاريخية:

«يجب احتواء الوضع فورًا. لا يمكن للبلاد أن تنحدر إلى الفوضى!».

بعد وقت ليس بالطويل، يدخل مدير أمن العاصمة بنظرة صارمة قائلًا:

«سيدي الرئيس، الوضع أصبح غير مستقر. يجب حمايتك في مكان آمن».

الرئيس يسأله بصوت خافت يحمل قليلًا من التوتر:

«وأين هذا المكان؟».

مدير الأمن يجيب بصرامة وكأنّه يقدم اقتراحًا عسكريًا محنكًا:

«خلف مصنع الكراسي، سيدي الرئيس».

رائحة عفنة تملأ المكان.. ليس بسبب المظاهرات، بل لأنّ المكان

الذي اختبأ فيه الرئيس ووزراؤه خلف مصنع الكراسي لم يكن مُعدًا لاستقبالهم، ينظر إلى وزير الداخلية بتساؤل:

«متى ستنتهي هذه المظاهرات؟! أريد العودة إلى مكتبي».

وزير الداخلية؛ الذي بدأ يشعر بالملل من كل هذا الهراء، يرد ببرود:

«أتعني متى ستنتهي الثورة، سيدي الرئيس؟!».

الرئيس يقفز من مقعده (أو على الأقل يحاول)، ويصرخ غاضبًا:

«ثورة؟! ثورة على من؟! هل جننت؟».

يرد الوزير بسخريه، وقد فقد آخر ذرة اهتمام لديه:

«ثورة على النظام، يبدو أنّ الكراسي لم تكن كافية».

الرئيس ينهار تمامًا، موجهًا حديثه للجميع:

«نحن النظام! والنظام لا يثور عليه أحد! نحن النظاااام».

رئيس الوزراء؛ الذي لم يستطع تمالك نفسه من الضحك، يقترب منه محاولًا تهدئته، ويقول بسخرية واضحة:

«لا يا سيادة الرئيس.. نحن لسنا النظام. إذا كنّا النظام، لما كنّا هنا!».

وهنا يأتي صوت أحدهم من بعيد، وكأنّه يعزف على أوتار السخرية:

«لأنّ النظام الحقيقي لا يذهب.. خلف مصنع الكراسي!».

حياة

تأوهتْ بصوتٍ مكتومٍ وهي تبكي من شدة التعب. «إنّها آلام المخاض»، همستْ لنفسها وهي تستعد للحظة المرتقبة. في غرفة العمليات، كانتْ تنتظر. صوتٌ داخلها يخاطبها: «اصبري، سيأتي الفرج قريبًا».

من حولها، كانتِ القلوب تنتفض بين الخوف والفرح.

وبالفعل، بعد لحظات مضنية، جاء الطفل. «ها هو الحبل الذي ربطك بحياتك السابقة»، قال الطبيب بلطف، قبل أن يقطعه إيذانًا ببداية حياة جديدة.

تساءلتِ الأم في داخلها: «كيف سأشعر الآن؟». وما إن سمعتْ بكاء طفلها الأول حتى انفجرتْ بالبكاء هي الأخرى، ولكن هذه المرة كانتْ دموع الفرح. الأهل والأصدقاء يحيطون بها، يهنئونها. «لقد جاء ليبدأ حياته!»، صرخ أحدهم فرحًا.

الطفل، على الرغم من صغر حجمه، كان يعرف بغريزته أنّ العالم الجديد يتطلب منه شيئًا بسيطًا لكنّه مهم. «كيف أطلب العون؟» فكّر، لكن لم يمضِ وقت طويل حتى جاءته الإجابة الطبيعية: البكاء.

وفي هذه اللحظة، تجلتْ قدرة الله في أن تكون الأم مصدرًا لغذاء وراحة هذا الكائن الصغير. «هأنا هنا من أجلك»، همستِ الأم وهي تحتضنه بحنان.

أطلّ الطفل على العالم بعينيه اللامعتين. «ما هذا العالم؟» تساءل الطفل، وإذا بصوت لطيف يهمس في أذنه: «أيها الطفل الجميل، إنّه عالم جديد. هؤلاء الناس.. هم أهلك وأصدقاؤك».

ابتسم الطفل وفتح عينيه على مصراعيهما. «هل يجب أن أتحرك لأراهم؟».

يسمع بصوتٍ رقيق: «بالطبع.. ذهب وقت الراحة. يجب بذل مجهود حتى تحصل على ما تريد».

ثم يأتي صوت البكاء مرة أخرى. «هل هذا طلب للغذاء؟» تساءلتِ الأم، قبل أن تقترب منه لتلبيه. ومن هنا..

تبدأ القصة..

قصة حياة.

الحفرة

كانتْ دقات قلبه تتسارع، وكأنّها تتناغم مع صوت المحرك الذي يئن تحت وطأة السرعة. ينظر خلفه بعينين مليئتين بالخوف. السيارة ما زالتْ تطارده، والمرايا الخلفية تعكس السيارة المسرعة التي تبدو كأنّها ظل لا يزول. يشعر بالعرق يتصبب من جبينه، يلتصق بجلده البارد، ورغم أنّه يضغط على دواسة الوقود بكل قوته، إلا أنّ شعور العجز يزداد داخله.

يزيد من سرعته، يحاول الهروب من قدر محتوم. «هل ستتوقف؟ هل ستستسلم؟» سأل نفسه مرارًا وتكرارًا. ولكن مع كل مرة ينظر فيها إلى المرايا، يزداد هلعه. السيارة الأخرى لا تزال تقترب، تزداد سرعتها، وكأنّها وحش جائع يبحث عن فريسته.

وفجأة، دون سابق إنذار، جاء صوت اصطدام قوي، كسر حاجز الصمت والخوف، وأطاح بكل شيء. تهشمتْ سيارته، تحطمتْ، وهو الآن يرقد في المستشفى، حالته حرجة، بين الحياة والموت. الألم يلتهم جسده، ولكنه لا يشعر بشيء سوى ثقل لا يُحتمل في صدره.

فتح عينيه ببطء، كمن يخرج من كابوس، ولكن الألم الواقع كان

أسوأ من أيّ كابوس. إلى جانبه، وقف رجل، صاحب السيارة الأخرى، عيناه تملؤهما الحزن والندم، وكأنّهما مرآة لعذابات داخلية لا نهاية لها.

عندما أفاق، اقترب منه الرجل بخطوات بطيئة، عيناه تفيض بالدموع التي حاول جاهدًا إخفاءها. بكى الرجل بصمت وهو يقول بصوت مختنق: «كنتُ أحاول أن أنبهك من الحفرة.. لقد فقدتُ عزيزًا لديّ بسبب نفس الحفرة. ولكنّك للأسف لم تنتبه».

شعر بحرقة في صدره، وكأنّ كلماته تمزق جروحه المفتوحة. نظر إليه طويلًا، ثم تحوّل بنظره إلى المرآة التي أمامه. رأى وجهه؛ ذلك الوجه الذي كان يومًا ما مليئًا بالحياة، وقد اكتسى الآن بضمادات تغطي جروحه المتناثرة، كأنّها تعبير عن انكسار داخلي لا يُداوى.

في مكانٍ ما، البعض يسميه العقل، البعض الآخر يسميه القلب، وربما الروح. في هذا المكان، وُلد صوت. صوت قوي، صوت يصرخ في داخله، يمزق هدوءه الداخلي، يحاول أن يجد إجابات.

«ماذا لو نظرتُ أمامي؟! ماذا لو؟».

للقصة بقيّة

قال بصوت يملؤه التوسل: «لم أنتهِ بعد من إكمال القصة.. فلتنتظر بعضًا من الوقت.. دعني أكمل ما بدأته».

أجابه بصوت بارد وحاسم: «لا يوجد وقت لديّ.. وعندي كثير من المهمات لم تُنجز بعد».

رد بتوتر متزايد: «ولكنّك أتيتَ فجأة.. لم أكن مستعدًا للقائك».

أجاب الصوت بحذر: «أنت تعلم بمجيئي.. لقد أخبروك مرات عديدة، لكنّك تجاهلتَ الإشارات».

حاول أن يتشبث ببعض الأمل، قائلًا: «أنت تعلم أنّ الطريق طويل، ولديّ أشياء كثيرة لم أنته منها.. دعني أكملها، دعني أعيش ما فاتني».

تردد الصوت لوهلة قبل أن ينطق ببطء، وكأنّه يمنحه فرصة أخيرة: «حسنًا، سأنتظر، لكن أخبرني، ماذا تريد أن تفعل بعجل؟».

تنفس بعمق، وكأنّه يحاول الإمساك ببقايا الوقت، وقال بنبرة ملؤها الشوق والحنين:

«دعني أعيش لحظات لم أعشها بعد..

دعني أكون طفلًا بريئًا مجددًا..

دعني أكون مراهقًا حرًا بلا قيود..

دعني أسطر حروفي، وأجعل الناس يسمعون صوتي..

دعني أحب حبيبتي..

دعني أنتظر المستقبل السعيد..

دعني أشعر بنبض الحب الحقيقي..

دعني أُقبّل زوجتي وأبنائي..

دعني أشرب نخب النجاح الذي طالما حلمت به..

دعني أرى العالم تحت قدميّ..

دعني أحب خالقي بكل جوارحي..

دعني أعيش الحياة كما يجب أن تُعاش».

لكن الصوت قاطعه بلا رحمة: «لا يوجد لديّ وقت لكل هذا!».

سأل بارتباك ورجفة تتسلل إلى صوته: «لماذا؟! إلى أين تأخذني؟!».

أجاب الصوت بهدوء قاتل: «إلى مكان معلوم لدى الجميع».

تساءل بخوف متزايد: «أين هو؟».

أجابه الصوت بلهجة مخيفة لا تحمل أي رحمة: «قريب جدًا.. أقرب مما تتخيل».

سأل بصوت مرتعش: «هل يسكنه أحد؟».

رد الصوت ببرود: «كثيرون قبلك سكنوه».

حاول أن يعرف المزيد، كأنّ السؤال الأخير سيمنحه مهلة: «ما هو؟».

أجابه الصوت بصوت أشد وقعًا، وكأنّ النهاية قد حانتْ: «سوف تراه الآن».

ظلام دامس يحيط به من كل جانب، لا يستطيع رؤية شيء. الهواء بارد وثقيل، يحس بأنفاسه تتباطأ. ثم، من بعيد، سمع صوتًا يناديه، صوتًا يشبه الريح الباردة، لكنّه كان حقيقيًا:

«ها قد جاء.. أهلًا بك في عالمك الجديد.. المكان معد لاستقبالك منذ زمن».

للقصة بقيّة!

ولكنّها لن تُروى لنا الآن..

فقد أكمل الفصل الأول من قصته..

أو ربما كان..

الفصل الأخير.

الوعد

الحبل انقطع فجأة، وبدأوا يهْوُون بسرعة في عمق البئر. صرخاتهم المذعورة تملأ المكان، تتردد في أعماق الصحراء القاحلة. كانوا في رحلة مشوقة إلى الصحراء، شكري، رضوان، جابر، وحامد. أرادوا استكشاف المجهول، أن يهربوا من روتين الحياة اليومية، لكن القدر كان يخفي لهم شيئًا آخر.

داخل البئر المظلم، أصبح الخوف رفيقهم الوحيد. (رضوان) يمسك بثعبان يحاول خنقه بيدين مرتعشتين، وهو يتمتم: «لن أسمح لك أن تقتلني.. لن أسمح لك». (حامد)، وقد جف حلقه من العطش، يجد نفسه مضطرًا للارتواء من بوله، وهو يتمتم بصوت مبحوح: «يا الله.. لا أريد أن أموت هنا!».

الشمس الحارقة تلهب جلودهم، والوقت يمر ببطء، وكأنّه يتعمد تعذيبهم. الموت يخيّم على الأفق، وجميعهم يشعرون بأنّ النهاية قريبة.

بدأ (شكري) يضرب رأسه في صخرة كالمجنون، يصرخ بصوت مليء باليأس: «سنموت.. سنموت جميعًا هنا.. لماذا يا رب؟! لماذا؟!».

(جابر)، بغضب ممزوج بالخوف، يمسك (شكري) ويصرخ في وجهه: «هل فقدتَ عقلك؟! توقف عن هذا الجنون، سنجد طريقة للخروج!».

(شكري) ينهار في البكاء، يجلس على الأرض منهارًا ويقول بصوت متحشرج: «لا أمل.. لا أمل في النجاة.. نحن محكوم علينا بالموت هنا».

(حامد) ينظر إلى زملائه، وعيناه تملؤهما الدموع، ويناجي ربه بصوت خافت: «يا رب، إذا أنجيتني من هذا الكرب.. لأكونن من عبادك المخلصين.. فقط، لا تتركني هنا».

مرتِ الأيام كالجحيم. في ليلة ممطرة شديدة البرودة، تصيب الحمى (شكري)، ويبدأ الموت في الاقتراب منه. (جابر) و(حامد) يحاولان بكل جهدهما تخفيف آلامه، لكن الأمل يتلاشى أمام أعينهما. (شكري) يلفظ أنفاسه الأخيرة بين أيديهم، وصوته المتقطع يقول: «أخبروا أمي.. أنّي كنتُ أفكر فيها.. حتى النهاية».

(رضوان)، بعد ذلك بفترة قصيرة، يحاول يائسًا تسلق جدران البئر. جراحه تنزف، ويداه ترتجفان، وأخيرًا يسقط متأثرًا بجراحه، مستسلمًا للموت.

يبقى (حامد) و(جابر) وحدهما، يحدقان في الظلام الذي يحيط بهما، يدركان أنّ مصيرهما قد يكون قريبًا. لكن (حامد)، في لحظة أمل، يجد القوة في داخله، ويتشبث بالحبل المقطوع، يحاول الصعود إلى الأعلى. (جابر)، بسبب ثقل وزنه، يسقط هاويًا على رأسه، يترك (حامد) وحيدًا في مواجهة المصير.

تمسك (حامد) بالحبل بقوة، يرتفع ببطء نحو النور، ونجا من ذلك الجحيم. لقد كُتبتْ له حياة جديدة، بعد أن عاش أسوأ أيام حياته.

بعد خمسة أعوام.

يجلس (حامد) وسط أصدقائه، يشرب قهوته الدافئة، ويضحك بشدة على إحدى النكات. يلوح بيديه متأثرًا، ويستمر الجميع في الضحك. لكن فجأة، في خضم هذه اللحظات السعيدة، يتسلل شريط من الذكريات إلى عقله.

يتذكر لحظات قد مضتْ، لحظات تم دفنها في أعماق ذاكرته. لحظات الخوف والألم، لحظات الصبر والأمل، لحظات النجاة.. ولحظات الوعد!

في الشارع، تجمع الناس حول حادث اصطدام سيارة بأحد المارة.

كان (حامد) مستلقيًا على الأسفلت، غارقًا في دمائه، ناظرًا إلى السماء بابتسامة هادئة، وهو يتمتم بروحه: ليس الآن! ليس الآن!

قبل بضع سنين:

يركض (حامد) مع أصدقائه وسط الصحراء، قلوبهم مليئة بالبهجة والمرح. إنّه يوم جديد في الصحراء، حيث جنون المرح يسبقهم..

إلى مكان مجهول!

علاقة: زوجية

تعرفتْ عليه عبر صفحته على الإنترنت. كانتْ صورة وجهه وابتسامته واسمه محفورين في ذاكرتها منذ اللحظة الأولى. الكلمات المكتوبة على الشاشة سرعان ما تحولت إلى مشاعر دافئة، ورغم المسافة بينهما، كانتِ القلوب تلتقي عبر أثير الإنترنت. شيئًا فشيئًا، أصبحتْ تلك المحادثات اليومية طقسًا لا غنى عنه. ومع مرور الوقت، تحولتْ صداقتهما الافتراضية إلى حب حقيقي. وبعد فترة ليستْ طويلة، تزوجا.

بعد عام من زواجهما، كان الفراغ يملأ حياتها من جديد، كأنّ شيئًا ما قد تغير، أو ربما هي نفسها قد تغيرتْ. كانتْ تفتش عن شيء مختلف، عن مغامرة، عن شعور يملأ ذلك الفراغ. فأنشأتْ صفحة أخرى، باسم مستعار وصورة لم تكن لها. وجدتْ نفسها تتحدث إلى شخص آخر، التي كانتْ تبررها لنفسها: هذا مجرد صديق (غير مرئي).. لن يضر ما دام سرًا.. والسر لن يعرفه أحد.

حتى جاء ذلك اليوم الذي خرج فيه زوجها ونسيَ هاتفه في

المنزل. استيقظ فضولها الذي كان يتغلغل في كلّ لحظة، وقررتْ فتح هاتفه.

اكتشفت أنّ زوجها هو الآخر قد أنشأ صفحة جديدة، باسم مستعار وصورة مغايرة. شعور غريب انتابها حين رأتْ ذلك، وبينما تتصفح صفحته الجديدة، كانتِ الصدمة تنتظرها..

إنّه هو!

ذلك الشخص الذي كان يتبادل معها رسائل التسلية والمرح، ذلك الصديق «غير المرئي».. لم يكن سوى زوجها.

شعرتْ ببرودة تسري في عروقها كالجليد. الذهول استبد بها، ويداها ترتعشان بعنف حتى سقط الهاتف من يدها على الأرض. التقطته بسرعة، وقلبها يرتجف، فتحتِ الرسائل الخاصة به، فوجدتِ الرسالة التي أرسلتها للتو... لكنّه لم يقرأها بعد.

مرتْ عليها لحظات بدتْ كدهور. شعرتْ برغبة عارمة في البكاء، ولكن عينيها لم تتمكنا من إخراج الدموع. كان الألم عميقًا، يمزقها من الداخل بصمت قاتل. تركتْ هاتفه وركضتْ إلى غرفتها، تبحث بجنون عن هاتفها الخاص، كأنّها تبحث عن مخرج من هذا الكابوس..

لكن هاتفها لم يكن موجودًا.

تبحث هنا وهناك، مرة بعد مرة، تقلب كل شيء رأسًا على عقب، ولكن دون جدوى. كانتْ في حالة ذعر.

اختفى الهاتف وكأنّه تبخر، وكأنّه أخذ معه كل أسرارها.. فجأة، سمعتْ صوت خطوات ثقيلة خلفها.

وفي تلك اللحظة، دخل زوجها إلى المنزل. وقبل أن تنطق بحرف، وقفتْ مذهولة أمامه وهو يقترب منها بخطوات هادئة، رأتْ في عينيه شيئًا غريبًا. فقط هدوء بارد يخفي وراءه شيئًا أعمق.

أخرج هاتفها من جيبه بهدوء ومدّه إليها قائلًا بابتسامة هادئة: «كنتِ تبحثين عن هذا، أليس كذلك؟».

تجمدتْ مكانها، لم تستطع النطق. كانتِ الكلمات تخونها، والموقف يتجاوز أي تبرير. أخذتِ الهاتف بيد مرتعشة، ولم تفهم بعد مغزى تصرفه.

ولكنه لم يتحدث. بل استدار بهدوء واتجه إلى مكتبه في الزاوية.

رن إشعار في هاتفها. نظرتْ إلى الشاشة، وكانتِ الرسالة على التطبيق الذي كانتْ تستخدمه مع «الصديق غير مرئيّ».

كانتْ من زوجها، نصها: «هل نكمل الحديث هنا؟».

نظرتْ إليه بذهول، ولم تستطع التفوه بكلمة. كل ما كان أمامها

هو الحوار المستمر على الشاشة...

عالم موازٍ

«أن تشعر بحرارة الشمس وبالبرد طواعية هو اختيارك.. أمّا أن تموت محترقًا أو متجمدًا فهو قرارك».

يجلس (صلاح الأيوبي) في المقهى بملابسه الجديدة، يحتسي قهوته ويدخن، بينما يمسك بمرآة صغيرة، يطلقون عليها «المرآة الذكية». ينظر إلى نفسه فيها، ويستقبل رسائلها. الساعة تشير إلى السادسة.. إنّه وقت لقاء الشريك. لقد اتفقا على هذا الميعاد.

خمسون عامًا مرتْ من عمر (صلاح الأيوبي)، وما زال يبحث. «ما زال الكثير ينتظرني»، هذا هو مبدؤه. يشعر بالبهجة لمستقبل يرسم فيه طريق السعادة.

نظر إلى ساعته وقد دقتِ السادسة تمامًا. التقتْ أعينهما في إعجاب، وإحساس رقيق دب إلى قلبيهما.

«من أنت؟ تكلم عن نفسك» قالتْ بصوت هادئ، وعيونها تلمع بالفضول.

«أنا الباحث عنك.. لم أتعب يومًا في البحث، والآن قد وجدتك» أجاب صلاح بثقة، وعيناه تشع بالدفء.

«ألم ترَ مثلي من قبل؟!» تساءلتْ بابتسامة خفيفة، وكأنّها تختبر صدقه.

«لا، لم أرَ» رد بجدية.

«أنا مثلي كثير.. يبدو أنّك مجامل إلى حد الكذب» قالتْ، وهي تراقب تعابير وجهه.

«أنا لا أكذب. صدقيني» أجاب بتأكيد، محاولًا إقناعها.

«ربما نفد رصيد الصدق عندك» قالتْ مازحة، ولكن بنبرة تحمل بعض الشك.

«ومن أنتِ؟» سألها بفضول.

«أنا ما تريده. ولقد بحثتَ عنّي ووجدتني. فما المقابل إذن؟» قالتْ، وقد أمالتْ رأسها قليلًا، منتظرة جوابه.

«وما هو المقابل الذي تريدينه؟» سألها وهو يشعر ببعض القلق.

«المقابل هو حياتك!» قالتْ بصوت حاسم.

«كيف؟» تساءل بذهول.

«لا أعلم.. هذا هو شرطي لتؤكد حبك لي، وإلا...» توقفتْ لوهلة، تراقب رد فعله.

«إلا ماذا؟» سأل بلهفة.

«الفراق» أجابتْ ببساطة.

«لا أستطيع.. فلتكن حياتي هي المقابل. ولكن.. أخاف أن تختفي ولا أجدك» قال بصوت مرتجف.

«أنا الآن.. هنا بجانبك» قالتْ وهي تقترب منه.

«ولكن كم من قريب يصبح بعيدًا؟ ربما ترحلين» قال بصوت خافت، وكأنّه يخشى تحقق مخاوفه.

«وكم من بعيد هو أقرب إليك من نفسك؟» قالتْ بنعومة.

«أخاف أن أفتقدك» اعترف بشجاعة.

«وهل ملكتني؟» ردتْ بسؤال، تحدق في عينيه.

«أخاف أن أحترق شوقًا» قال بصوت مكتوم.

«وهل اقتربتَ منّي؟» ردتْ بتحدٍ.

«أخاف أن أقترب، وأتمنى ألا أبتعد» قال بصوت مفعم بالتردد.

«وهل حاولت؟» قالتْ بابتسامة غامضة.

«أستاذ صلاح الأيوبي» قال النادل بلطف، «توجد إحدى الجالسات على الطاولة المقابلة.. تدعى الآنسة نهلة، في انتظارك».

نظر إليها خلسة، وتأمل مرآته الخاصة قائلًا: «قل لها إنّي قادم على الفور».

قام من مكانه وتوجه نحوها، مادًا يديه بلباقة قائلًا: «كيف حالك؟».

ردتْ (نهلة) التحية برصانة، مبدية اهتمامها. تبادلا الحديث لفترة، وبدأ الانسجام يتسلل بينهما.

بعد فترة من الحديث، ووسط جو مفعم بالراحة، تومض مرآة (صلاح) مرة أخرى..

إيذانًا باستقبال رسائل جديدة.

انقذ شجرة

نظر إلى زجاج السيارة التي أمامه، تأمل انعكاس وجهه المتعب، وفكر: «ما هذه التجاعيد في وجهي؟! هل هذا حقًا أنا؟». دخل إلى المسجد لصلاة الظهر جماعة. كان يبحث في وجوه المصلين عن أحد يعرفه، لكنّه لم يجد أحدًا مألوفًا. جلس لتلاوة بعض آيات القرآن، وعندما انتهى، اقترب منه رجل. هو نفس الرجل الذي يداوم على طلب الصدقة منه منذ سنين.

أعطاه الصدقة كعادته، والرجل بدأ بالدعاء له بالبركة والصحة. استمع إلى دعائه بشعور من الروتين، ثم غادر المسجد متجهًا إلى السوق لشراء بعض الاحتياجات المنزلية. كان يحاول تذكر ما طلبته منه زوجته، لكن ذاكرته خانته. «ربما عليّ الاتصال بها»، فكر بصوت مسموع.

عاد إلى المنزل بعد أن انتهى من تسوقه. جلس أمام التلفاز يشاهد نفس البرامج، نفس الكلام المكرر. «لا جديد»، تمتم لنفسه وهو يتصفح الإيميل. في نهايته، قرأ عبارة أثارت انتباهه: «لا تطبعه.. ربما تنقذ شجرة».

بدأ يشعر بالوحدة، وكأنّ العالم من حوله قد تلاشى. «هل حقًا لا وجود لي؟» تساءل في داخله. فتح الصحيفة، نفس الأخبار اليومية المعتادة. قرر تصفح صفحة الوفيات، وعندما وصل إليها، شعر بالهلع. «مستحيل!» قال بصوت متحشرج. رأى اسمه مكتوبًا فيها، وعزاؤه اليوم!

نظر إلى الصورة المصاحبة، كانتْ صورته بلا شك. «لقد توفيت؟! لكن.. أنا هنا، أتنفس، أشعر بكل شيء!» تساءل مع نفسه بفزع. تحسس جسده، حاول أن يستوعب ما يراه. «ربما يكون تشابه في الأسماء»، لكنّه لم يستطع إنكار أنّ الصورة هي صورته.

ركض إلى غرفته بسرعة، وهناك، وجد صورته معلّقة بشريط أسود. نظر إلى زوجته، فوجدها في حالة اكتئاب شديد، ترتدي ملابس سوداء استعدادًا للعزاء. حاول أن يتحدث إليها، لكن صوته لم يصلها، وكأنّها لا تراه.

سمع صوتًا خلفه، أحدهم يخاطب زوجته: «هيا بنا، قد حان الوقت». رأى زوجته تذهب معهم في ذهول، لم تلتفتَ إليه.

وجد نفسه وسط حشد كبير من الناس. «ما كل هؤلاء؟!» تساءل. الجميع كان حزينًا، بعضهم يبكي بحرقة. جلس بجوار أحدهم، كان

يعرفه منذ زمن طويل. إنّه جاره وصديق عمره. سمعه يتحدث عنه والدموع تملأ عينيه: «كان إنسانًا عظيمًا.. كم ساعدني وساعد الكثير. يا ليت كل الناس مثله!».

رأى زوجته تنهار باكية وهي تستقبل المعزين. سمعها تقول والألم يعتصر قلبها: «كان إنسانًا وفيًا كريمًا. كان زوجي وأبي وأخي».

نظر إلى أبنائه، كانوا يقفون متماسكين رغم الحزن، يستقبلون المعزين بعيون مليئة بالأسى. «لقد كبروا كثيرًا!» فكّر بصوت خافت.

بين الحشود، رأى رجلًا يأتي من بعيد. «أعرفه» قال في نفسه، وعندما اقترب، عرفه على الفور. إنّه الرجل الذي كان يتصدق عليه في المسجد. جاء لحضور العزاء، متأثرًا في حزن.

المعزون توافدوا بأعداد كبيرة، وأثناء ذلك، بدأ البعض يوزع مصاحف وأدعية صدقة على روحه. آخرون تطوعوا لأداء عمرة، والتصدق بأجرها له. وهناك من قرروا زرع شجرة، وجعل ثمارها صدقة جارية على روحه.

تحدثتْ روحه إليه، وقد ملأها الفرح: «ما هذا الكرم والجود من أهلي وأحبابي؟! لقد تركتُ أثرًا جميلًا في حياتي، وهأنا أحصد ثماره الآن».

ابتعد عن الحشد وهو يشعر بالسلام، قلبه مليء بالسعادة.

«ما زلتُ حيًا.. لم أمتْ. لقد طرحت الشجرة التي ربما.. قد أنقذتُها يومًا ما».

فرق توقيت

يجلس (مجدي) في حديقة بيته، متناولًا دواءه في هدوء. كانتِ الشمس تلقي بأشعتها الدافئة على جسده المتعب، فيحاول الاستمتاع بتلك اللحظات البسيطة. نظر إلى يديه المرتعشتين، وتساءل في نفسه: «متى أصبحتُ هكذا؟ كيف مرتِ الأيام بهذه السرعة؟».

كان يعاني من ضعف نظره، وأمراض الشيخوخة بدأتْ تنال منه. لم يكن يتصور أن يأتي عليه يوم يعيش فيه وحيدًا، بعدما كان بيته يعج بالزوار، بالأصوات والضحكات. والآن، يجلس وحيدًا في حديقته، يراقب المارة، على أمل أن يأتي شخص يعرفه.

كان ينتظر مكالمة أو زيارة من أصدقائه أو أقاربه، لكنّه يعلم أنّ الانتظار قد يطول. قد ذاق ألم الوحدة عندما هاجر ولداه إلى كندا.

تأتي (سعاد)، الخادمة التي باتتْ رفيقته الوحيدة، تحضر له الإفطار. يشتاق إلى سماع صوت أبنائه، ولكن صباحه هو ليلهم، فيقول لـ (سعاد) بتنهد عميق: «أريد أن أتحدث إلى أبنائي، ولكن كما تعلمين، دائمًا يوجد.. (فرق توقيت)».

تحدثه نفسه: «يا لها من مسافة، ويا له من فرق توقيت! كيف سمحت لهم بالرحيل؟ ربما كان عليّ أن أتمسك بهم أكثر».

يرتدي ثوبًا جديدًا، اليوم عيد. لكنّه، كالعادة لا جديد، يجلس في الحديقة متفحصًا المارة. «هل يذكرني أحد اليوم؟ هل سيتصلون؟»، تساؤلات تتردد في ذهنه وهو يرى (سعاد) تحاول مساعدته للجلوس على الكرسي.

«اليوم أريد أن أزرع بعض الزهور في الحديقة. هلا ساعدتِني؟» قالها (مجدي) لـ (سعاد)، وكأنّ في صوته بريق أمل، لكنه داخليًا يتساءل: «هل سأعيش حتى أرى جمالها يزهر في هذه الحديقة التي كانتْ يومًا مليئة بالحياة؟».

وفجأة، شعر بألم حاد في صدره. تحدثه نفسه «ليس الآن.. ليس قبل أن أسمع أصواتهم». طلب من (سعاد) أن تعطيه الدواء على الفور. تسرع إليه (سعاد)، قائلةً بقلق: «سأتصل بالطبيب على الفور وعليّ أن أخبر أولادك بالأمر، فقد تكرر هذا الألم في الآونة الأخيرة».

يرد (مجدي)، محاولًا إخفاء ألمه: «لا داعي، لا أريد أن أقلقهما. العيد عندهما غدًا، وسوف يتصلان بي بالتأكيد. فقط أعطني الدواء وكوب من الماء»، ثم يضيف بحزن داخلي: «سوف أسهر الليلة حتى أتمكن من الاتصال بهما، لأنّكِ تعلمين أنّه يوجد.. فرق توقيت».

يرن الهاتف، فيرد (مجدي) بلهفة: «ألو.. كيف حالك يا وليد؟».

يأتي صوت ابنه من الجانب الآخر: «أهلًا يا والدي العزيز. كيف صحتك الآن؟».

تتسارع دقات قلب (مجدي)، وكأنّه استعاد شبابه للحظة: «أنا بخير، أشتاق لرؤيتك أنت والأولاد».

يرد (وليد)، محاولًا طمأنته: «عن قريب يا والدي، سوف نأتي لزيارتك».

يسأله (مجدي) بتلهف: «متى؟ هل حددتَ موعدًا؟ وكيف حال أخيك إيهاب؟». ثم فجأة، يسمع صوته يتلاشى: «آلو.. آلو.. وليد.. أين أنت؟ هل تسمعني؟».

ينقطع الاتصال كالعادة. يغلق (مجدي) الهاتف بهدوء، لكنّه يشعر بفراغ داخلي. «هل يعلمون كم أشتاق إليهم؟» ورغم ذلك، كان سعيدًا لسماع صوت ابنه، رغم أنه كان مستيقظًا حتى منتصف الليل فقط ليتفادى.. فرق التوقيت».

بعد بضعة شهور، ينادي (مجدي) بصوت عالٍ على (سعاد). شعر بألم شديد في صدره. تأتي إليه (سعاد) مسرعة، وجهه أصبح

شاحبًا، وعيناه زائغتان. تقول له (سعاد)، وقد انتابها الارتباك: «ماذا أفعل؟ يجب أن أتصل بالطبيب فورًا وأبلغ اولادك حتى يتسنى لهم المجيء في أسرع وقت، ضروري.. ضروري».

لكن (مجدي)، وقد بدا متعبًا بشدة، ينظر إليها في هدوء، ويغمض عينيه بابتسامة هادئة، قائلًا بصوت خافت، وكأنّه يهمس لنفسه ولها:

«لا داعي.. ربما هما نائمان الآن.. لا داعي لإيقاظهما.. أنتِ تعلمين أنّه يوجد.. (فرق توقيت)».

وفي تلك اللحظة، شعر بالراحة تعانقه، وهو يسلم روحه بهدوء إلى خالقها. تحدثه نفسه «هل سيشعرون بي؟ هل سيتذكرونني؟ ربما في عالم آخر، سأكون أقرب إليهم..

ولكن..

بدون فرق توقيت».

هند والحاج كرم

«أحداث هذه القصة مستوحاة من الواقع».

كانا أحلى زوجين، (هند) والحاج (كرم). الدنيا ضحكت لهما بحلوها، ومقدرتش تغلبهما بمرها. عاشوا حياتهم من غير خوف، متوكلين على ربنا، وقلوبهم مليانة بالإيمان.ربنا رزقهم ببنت جميلة، طلة ولا أجمل، وضحكة ولا أروع! اسمها (كريمة)، (كريمة بنت الحاج كرم). كبرت (كريمة)، وقلوب الناس كلها تعلقت بيها لجمالها ورقتها. لكن قلبها كان من زمان مختار. حبت (هنداوي)، الفلاح البسيط صاحب الأيدي الشقيانة والقلب الكبير.

لكن الدنيا ما سبتهمش في حالهم. رئيس الغفر، الراجل صاحب النفوذ والقوة، كان عايز (كريمة) لنفسه. قال لها: «أنا ملكك وبين إيدك، أجبلك الدنيا وما فيها. وده خاتم وإسورة دهب هدية ليكِ».

لكن (كريمة)، برغم فقرها، كانت غنية بحبها. رفضت الهدية وقالتله بحزم: «يعني القلب بيتشري بالدهب؟ لا، أنت مش ليا».

أصل القلب وما يعشق، و(كريمة) قلبها ما كانش معاها. قلبها كان عاشق لـ (هنداوي).

(هنداوي)، جاب لها فطيرة وعسل، وقال لها بابتسامة: «الشبكة سلسلة ما شاء الله». قعدوا على الشط، وفي أمواج البحر كانوا سرحانين.

(كريمة) بتقول لـ (هنداوي): «ده المكان الوحيد اللي عايزة أبقى فيه. مش محتاجة دهب ولا قصور، بس عايزاك جنبي».

«بحبك يا هنداوي» قالتها (كريمة)، بصوت مليان بالشوق.

«بحبك يا كريمة» رد عليها (هنداوي)، وكأنّهم كانوا بيهمسوا للحياة نفسها.

وكان.. الشط والبحر شاهد.

أيام تمر، وكل حاجة بتتغير...

(كريمة)، إيديها مليانة دم، دموعها كانت نازلة زي الأنهار. بصت لـ (هنداوي) الملقى قدامها، وقالتْ بصوت مخنوق: «رحت مني!!». كانت دموعها زي البحر، غمرت وشها لكن ماغسلتش ألمها.

(كريمة) منهارة وبتقول: «إزاي ده حصل؟ إزاي انتهى كل حاجة بسرعة كده؟ كان معايا من شوية، ودلوقت... بقى جثة! ليه مقدرتش أحميه؟ ليه مقدرتش أعمل حاجة؟».

رئيس الغفر، واقف بحقد، ماسك مسدس، وبيقولها ببرود: «دلوقت.. أنتِ ملكيش غيري».

(كريمة) بتحاول تقاوم: «مستحيل.. مستحيل يكون ده مصيري. مقدرش أعيش مع اللي قتل حبيبي!».

وفي اللحظة دي، من بعيد، شافت (كريمة) أهلها، (هند) والحاج (كرم)، جايين بسرعة. في عينهم شرار غضب وحزن.

دموع (كريمة) وقفت فجأة، كأنها ما بقتش تقدر تبكي، خافت دموعها تبقى سبب في آلامهم.

مدت يدها لرئيس الغفر، وقالتله بصوت مليان استسلام: «أيوه.. أنا مليش غيرك».

(هند) والحاج (كرم) وقفوا مكانهم، بيبكوا بمرارة. دموعهم كانت بتختلط بدم (هنداوي).

مشت (كريمة) مع رئيس الغفر، واختفوا عن الأنظار، وكل خطوة كانت تحس كأنها بتسحب روحها معاها.

ومازال.. الشط والبحر شاهد.

أنيس والقرد زقزوق

في يوم ما.. في شهر ما.. في عام ما.. تعالتْ صرخات الأم إيذانًا بميلاد طفل جديد، الطفل (أنيس). وفي مكان آخر، بعيدًا عن صخب البشر، رقصتِ القردة ميمونة في الجبلاية، تتسلق الشجرة فرحًا بميلاد ابنها، القرد زقزوق. ومن هنا تبدأ قصة.. أنيس والقرد زقزوق.

الأصدقاء:

الجبلاية كانتْ أعلى مكان في البلدة الصغيرة التي يسكنها (أنيس). كان يذهب إليها بعيدًا حتى يستطيع أن يرى الأفق ويمتلئ قلبه بالمرح والسعادة.

يقول (أنيس) وهو ينظر إلى الجبلاية: «يا سلام! المكان ده كله حيوية وبهجة. نفسي ألاقي حد ألعب معاه هنا».

يرد زقزوق الذي كان يراقب (أنيس) من فوق الشجرة: «هيي! إنت بتدور على حد تلعب معاه؟».

(أنيس)، بدهشة، ينظر إلى زقزوق: «إيه ده؟ إنت قرد! وبتعرف تتكلم؟».

يضحك زقزوق: «أيوه، أنا قرد، واسمي زقزوق! وبتكلم زيك بالظبط. يلا نلعب مع بعض!».

(أنيس) مبتسمًا: «أكيد! تعالَ نلعب سوا».

بسرعة نزل زقزوق من الشجرة وبدأ يلعب مع (أنيس). في لحظات، أصبحا أصدقاء. كل يوم كانا يلتقيان في الجبلاية، يضحكان ويستمتعان بوقتهما.

يقول (أنيس) بسعادة: «أنت أحلى حاجة حصلتلي في حياتي يا زقزوق. مش متخيل إني ممكن ألاقي صديق زيك».

يرد زقزوق بابتسامة عريضة: «وأنا كمان يا أنيس! انت بجد غيرت حياتي، ما كنتش عارف إن ممكن يكون ليا صاحب من البشر».

الغرفة:

في يوم من الأيام، تأخر (أنيس) عن زيارة زقزوق. انتظر زقزوق لساعات طويلة، عيناه تبحثان عنه في كل مكان. لكن (أنيس) لم يأتِ.

يقول زقزوق لنفسه، وقد بدا عليه القلق: «فينك يا أنيس؟ ليه سبتني لوحدي؟ هل نسيتني؟».

وأخيرًا، بعد ساعات طويلة، ظهر (أنيس) وهو يجري إلى الجبلاية حاملًا الأكل والحلوى.

(أنيس) بلهفة: «آسف يا زقزوق إني تأخرت، كان عندي حاجات كتير أعملها النهارده».

يرد زقزوق وهو يشعر بالارتياح: «كنت خايف تكون نسيتني. ما تسبنيش تاني يا أنيس، أنا ما ليش غيرك».

(أنيس)، وهو يربت على رأس زقزوق: «ولا يهمك يا زقزوق، مش هنفترق تاني، أنا وأنت دايمًا مع بعض».

في يوم آخر، أخذ (أنيس) زقزوق إلى غرفته، بعيدًا عن ضوضاء الجبلاية.

(أنيس) مبتسمًا: «إيه رأيك يا زقزوق؟ هنا هنقدر نقضي وقت هادي بعيد عن كل الضجيج».

زقزوق ينظر حوله باستغراب: «دي أول مرة أبعد عن الجبلاية كده. لكن طالما إنت معايا، مش مهم فين نبقى».

(أنيس) وهو ينظر إلى زقزوق بتأمل: «عارف يا زقزوق؟ أنا وأنت بقينا شبه بعض جدًا. مش بس في اللعب، حتى في الأكل والشرب».

زقزوق يضحك: «يعني إنت بقيت قرد زيي؟».

(أنيس) ضاحكًا: «يمكن، وإنت كمان بقيت زي البشر».

زقزوق وهو ينظر إلى أنيس بتفكير: «طيب، يا ترى في الآخر هتبقى إنت زقزوق؟ ولا أنا اللي هبقى أنيس؟».

(أنيس) مبتسمًا: «مش عارف، لكن اللي أكيد إننا مش هنفترق أبدًا».

الفرافير

مملكة الفرافير:

في مملكة الفرافير، حيث يحكمهم الفرفور الأكبر، كان النظام والدستور هما سيدا الموقف. الفرفور الأكبر كان يصرّ على أنّه «خادم الفرافير»، متفانٍ في خدمتهم. تأكل الفرافير وتشرب وتنام وفق نظام محدد، وتعتبر مجتمعها مثاليًا؛ حيث الاستقرار والثبات هما دينهم.

في يوم ما، وبينما كان الفرفور الصغير يجلس مع والده تحت ظل شجرة، سأل بفضول: «أبي، ماذا يوجد خلف الأسوار؟».

نظر إليه الأب بعيون متفاجئة، وكأنّ السؤال يحمل في طياته خطرًا غير مرئي، مجيبًا بصرامة: «لماذا تسأل هذا السؤال؟!».

الابن بلهفة، وكأنّ الفضول يشتعل في قلبه: «أشعر بأنّ هناك شيئًا مختلفًا.. ربما الأفضل خلف الأسوار!».

انفعل الأب، موجهًا حديثه إلى ابنه بلهجة حادة: «لا يوجد شيء أفضل من هنا! هذه الأسوار تحمينا.. السؤال غير مجدٍ، اسأل عن شيء ينفعك!».

الابن، مترددًا وقد شعر بالخوف من ردة فعل والده: «مثل ماذا؟».

الأب، محاولًا السيطرة على الوضع: «مثل قدرتك على الركض أو التنفس تحت الماء».

صمت الأب للحظة، ثم سأل بحذر: «هل أخبرتَ أحدًا بهذا السؤال؟».

شعر الابن برعشة تسري في جسده، ثم همس: «نعم.. قلتُ لبعض زملائي في المدرسة».

تغيرتْ ملامح الأب فجأة، وأمسك بيد ابنه بقوة: «لماذا فعلتَ ذلك؟! هل جننتَ؟! لا يجب أن يعرف أحد أنّك تفكر بهذه الطريقة!».

الاضطراب النَّفسِي:

في المستشفى، يقف الأب أمام الطبيب، وجهه شاحب وكأنّه فقد روحه مع كلمات الطبيب: «ابنك يحتاج إلى علاج عاجل في مصحة نفسية».

نظر الأب إلى الطبيب بعيون مكسورة، صوته متحشرج: «لكن.. إنّه ابني الوحيد، لا يمكنني فقدانه».

الطبيب، بنبرة باردة وحاسمة: «التقارير تؤكد أنّ ابنك يعاني من

اضطراب عقلي خطير. لا بد من عزله عن باقي الفرافير.. هل تريد أن تضر المجتمع بأكمله؟».

الأب، وهو يشعر بأنّ الأرض تنهار من تحته: «لكن.. متى سينتهي العلاج؟».

الطبيب، وهو ينظر إلى ساعته ويستعد للمغادرة: «حينما يعود ابنك إلى رشده. لن يأخذ وقتًا طويلًا إذا استجاب للعلاج».

خرج الأب من المستشفى، رأسه منكسر وعيناه تلمعان بالدموع، قلبه يتمزق وهو يعلم أنّ ابنه الوحيد بعيد عنه. لكنه.. يثق في مجتمع الفرافير، ويعلم أنّ هذا هو الطريق الصحيح.

الصديق:

في الغرفة المظلمة، جلس الفرفور الصغير، محاصرًا بأربعة جدران باردة. يُسمع صوت صراخه من خارج الغرفة، وكأنّه يحاول التمسك بأي شيء يعيده للحياة.

ينظر من النافذة الضيقة، فيرى شابًا يصرخ بجنون: «أطلقوني.. أريد أن أعرف ماذا خلف الأسوار!».

أثار ذلك المشهد فيه شعورًا غريبًا. تحدث إلى نفسه بحماسة: «أخيرًا.. لستُ وحدي. لكن كيف يمكنني الوصول إليه؟ كيف

يمكنني الهروب من هذا السجن؟».

وفي يوم ذكرى تأسيس مملكة الفرافير، أُتيحتْ لهما الفرصة. التقيا في الزنزانة المعتمة وتحاورا:

«ما قصتك؟» سأل الفرفور الصغير، وعيناه مليئتان بالتوتر.

«أنا الباحث عن الحقيقة خلف الأسوار. لقد حبسوني لأنني أردتُ أن أرى ما خلفها» أجاب الشاب، وكأنّ كلماته تحمل معنى أعمق.

«وأنا أيضًا أريد أن أرى ما خلفها. لكن.. هل نجحتَ في الاقتراب من الأسوار؟» تساءل الفرفور الصغير، وقد اشتعلتْ في قلبه رغبة الهروب.

«حاولتُ مرات عديدة، لكنّهم أقوياء. الحراسة شديدة، والأسوار أعلى مما نتخيل» أجاب الشاب بمرارة.

«ما الحل إذًا؟ كيف سنكسر هذه القيود؟» سأل الفرفور الصغير، وعيناه تلمعان بالتحدي.

جلسا سويًا، وبدآ يخططان لهروبهما.

الهروب:

الأدوية كانتْ تتساقط في الخفاء، تم الادعاء بتعاطيها أمام الأطباء. المراقبة كانتْ مشددة، لكنّهما راقبا كل التفاصيل.

قال الشاب بحماس: «الليلة.. سنكسر القيود».

أومأ الفرفور الصغير برأسه، وهو يشعر بأنّ قلبه ينبض بسرعة قائلًا: «الهروب هو الخلاص الوحيد».

نجحتِ الخطة.. في ظلام الليل، تسللا من المستشفى، وبدأوا رحلة نحو الحرية. الأسوار العالية كانتِ التحدي الأكبر، لكنّهما نجحا بعد معاناة شديدة.

نظر الفرفور الصغير إلى الشاب بعد أن تسلقا الأسوار، وعيناه تلمعان: «أخيرًا.. نحن هنا».

تنفسا نسيم الحرية للمرة الأولى، وكأنّهما عادا إلى الحياة من جديد.

عالم جديد:

نظرا إلى ما خلف الأسوار.. إنّه عالم جديد، مختلف عن كل ما عرفوه. الشوارع كانتْ غريبة، والمباني أكثر غرابة.

قال الفرفور الصغير بصدمة: «لكن، إنّهم فرافير مثلنا!».

لم يلبث أن هرول إليهم شخص غريب، متسائلًا: «من أنتما؟ من أين أتيتما؟ هل أتيتما من خلف الأسوار؟ أريد أن أذهب معكما.. أريد أن أعرف ماذا خلف الأسوار الأخرى».

نظر الشاب إلى الفرفور الصغير، وهما يشعران بالصدمة نفسها. لم يكن العالم كما تخيلاه.

قال الفرفور الصغير، وهو يشعر بالرهبة: «هل.. هل هذا المكان مثل مكاننا؟ هل هناك أسوار أخرى؟».

هتف الشاب: «لا يمكننا البقاء هنا.. يجب أن نعود!».

يجريان عائدين إلى مجتمعهم، لكنهما اتخذا قرارًا مختلفًا هذه المرة.

فقد قررا..

تحطيم الأسوار.

جانيت

البداية:

«لعن الله النامصة والمتنمصة»، كانتِ الكلمات تتردد في أذنَيّ (أحمد) بينما يستمع إلى خطيب المسجد في خشوع. عيناه تغمرهما الدموع وهو يمسك بمصحفه، قلبه يخفق بالخوف والتوبة. «اللهم ارحمني واغفر لي خطيئتي» يرددها بصوت خافت، كأنّما يخشى أن تسمعه نفسه.

هكذا تعلّم من شيوخه، أن يكون دائم الاستغفار والتوبة، متأسّيًا بالرسول الكريم.

(أحمد)، طالب في كلية الطب، نشأ في أسرة متوسطة، ابن الدكتور المحترم والناظرة الفاضلة. لم يكن يومًا شاربًا للمحرمات ولا فاعلًا لكبيرة، بل كان مثالًا للشاب الملتزم.

خلال دراسته في الكلية، ظلّ (أحمد) مخلصًا لصلواته، يغض بصره ويحفظ كلام ربه، مدركًا أنّ الدنيا دار اختبار، والآخرة دار القرار.

بعد تخرجه من الكلية، بدأتْ حياته العملية تأخذ منعطفًا جديدًا. حصل على فرصة للالتحاق ببعثة دراسية إلى المملكة المتحدة،

وحينها أخذ معه كتبه الدينية ومصحفه المفضّل، مؤمنًا بأنّه سيظل ثابتًا على طريق الصواب مهما ابتعد عن وطنه.

النهاية:

بعد مرور عامين:

أحب (أحمد) (جانيت).. لم يكن مجرد حب عابر، بل حبًا استحوذ على قلبه وروحه، جعل عقله حبيسًا بين يديها. (جانيت) لم تكن فتاة عادية، كانتْ تمتلك جمالًا يأسر العقول وذكاءً ينفذ إلى الأعماق.

أصبح (أحمد) أسيرًا لـ (جانيت)، يفعل كل ما تأمره به دون تردد. تغيّرت حياته.. تزوجّا.

في إحدى الليالي المظلمة، كان يجلس وحده، يغمض عينيه، وتنساب الدموع على خديه.

بكى (أحمد) وندم على عمره الذي ضاع..

بدون (جانيت).

وسقطتِ الذبابة

ينظر إليّ بنظرة متعالية ولحيته المبعثرة وكأنّه يحمل حكمة الأزل، ثم قال بفخر: «اشرب من الكأس ولو كان فيه ذبابة، فقد قال السلف: الذبابة لا تضر».

نظرتُ إليه مستهجنًا، وقلتُ: «لكنني لا أستطيع، قد أتقيأ أو أسكب الكأس عليك».

ابتسم ابتسامة لا تخلو من الثقة الفارغة، وقال: «لا عليك».

أخذتُ بعض رشفات من الكأس.. فعانيت من الألم ما عانيت.

قال لي: «ما بك؟».

قلتُ له: «ربما تسممتُ أو مسني المرض».

فأجابني بكل هدوء: «هذا من وهن إيمانك، التشكيك كُفر يا بني».

نظرتُ إليه بدهشة، وقلتُ: «حسنًا، إن كنتَ مؤمنًا بهذا القدر، فلتشرب مثلي إذن!».

ابتسم بابتسامة ساخرة، وأخذ نفسًا عميقًا قبل أن يقول: «يا بني، وهل كان الكأس ممتلئًا؟».

نظرتْ إليه بحيرة: «ماذا تعني؟».

فقال وهو يميل برأسه كمعلم حكيم: «النصف الممتلئ كان لك، والنصف الفارغ لي».

بدهشة وغضب، قلتُ له: «وماذا يعني هذا؟!».

قال لي: ما أظلمك!! أنت من المحظوظين.. فلقد كتب الله لك النصف المملوء، انظر إلى النصف المملوء من الكأس ولا تقنط..

فلقد سقطتِ الذبابة!

وطني

في طريقي، التقيتُ بشخص عزيز، عيناه تلمعان وكأنّهما تحملان عالمًا آخر غير الذي أعرفه. قال لي بصوت هادئ لكنّه حازم:

«حان وقت السفر. حان وقت البحث عن الذات وتحقيق الأحلام».

شعرتُ بغصة في حلقي، وأجبته بشيء من الارتباك:

«لكن، أين تحقيق الأحلام عندما تشتاق إلى الأهل والأصدقاء؟».

نظر إليّ بثقة أثارتْ في داخلي موجة من التساؤلات، وقال:

«أين راحة البال وسط هم الديون وغلاء الأسعار؟».

كلماته كانتْ ثقيلة، لكنني لم أستطع تجاهل شعور الغربة الذي يتسرب إلى داخلي. سألته بصوت منخفض:

«وأين راحة البال عندما تضيع في زحام المطارات بين الغرباء؟».

ابتسم، وكأنّما يحمل معه سرًا لا يدركه سواي. ثم قال بنبرة ملأها الرضا:

«أنا كالطير، أبحث عن كنزي في بلاد الله».

نظرتُ إليه بحزن لم أستطع إخفاءه، قلتُ ببطء وكأنني أحاول إقناعه أو ربما إقناع نفسي:

«وطنك هو كنزك».

رد بحماس لم أكن أتوقعه:

«وطني هو مكان رزقي، وإن كان رزقي في السفر، فوطني هو سفري».

حاولتُ أن أجعله يدرك ما أراه أنا، فقلتُ:

«سفرك هو هروب من واقعك».

لكن إصراره كان مثل جدار لا يمكن تجاوزه، فقال دون تردد:

«الهروب من الزحام والقيود هو ما أبحث عنه».

قلتُ له أنّ الابتعاد هو النسيان، نسيان الأماكن والمشاعر. ابتسم بثقة وأضاف:

«سأتذكرهم دائمًا، في منامي وفي يقظتي».

تساءلتُ بصوتٍ لا يكاد يُسمع:

«هل تكون مواطنًا في غربة؟».

فأجابني وكأنّ السؤال لم يكن مهمًا:

«موطني هو من يعطيني لأحيا كإنسان».

أردتُ أن أخبره أنّ الوطن هو دفء الأسرة، ولكن قبل أن أنطق، قال بشموخ لا يُقاوم:

«العالم هو وطني ما دمت حرًا. الوطن يسكنني. لن نفترق أبدًا، دعني أذهب، لا وقت لدي».

نظرتُ إليه بأسى، كأنّني أودعه قبل الرحيل، وهمستُ:

«إلى أين؟».

ابتسم كمن يحمل سرًا عظيمًا، وقال:

«إلى طريقي الجديد».

سألته مجددًا وأنا أعلم أنّ هذا ربما آخر حديث بيننا:

«إلى أين ينتهي بك الطريق؟».

ابتسم ابتسامة عميقة، وقال بهدوء:

«إلى وطني».

خارج السرب

«كن ما تريد أنت، لا ما يريده الآخرون».

قالها صديقي بلهجة حادة، وهو الشخص الذي يعيش بحرية دون قيد. صديقي الذي يفعل ما يشاء دون أن يكترث لرأي الآخرين. هو باحث ومفكر ناجح في عمله بوسط البلد بمنظمة اليونسكو، يقطع مسافات لا تنتهي بحثًا عن مغامراته، بينما أنا.. مجرد تكرار لأيام متشابهة، كل يوم كالذي قبله.

نظر إليّ صديقي بعينين مليئتين بالحماس والإصرار، ثم قال:

«ألم يحن الوقت لتغير نمط حياتك الممل؟».

شعرتُ بارتباك داخلي، فقلتُ بصوتٍ متردد:

«كيف لي أن أفعل هذا؟ كل شيء مألوف ومستقر، كيف يمكنني أن أخرج من هذه الدائرة التي تحيطني؟».

ابتسم بثقة وكأنّه يحمل الجواب الذي ينتظرني منذ زمن بعيد:

«فكر أن تقوم بشيء يجعلك تستيقظ متحمسًا لما ينتظرك كل صباح؟»

قلتُ بنبرة هادئة، لكنّها مليئة بالعجز والاعتراف بالفشل:

«هذا هو العالم الوحيد الذي أعتاد عليه».

سألني بنبرة مليئة بالتحدي:

«وهل جربتَ البحث عن شيء آخر؟ أن تتجاوز ما اعتدتَ عليه، وتكتشف عوالم جديدة؟».

أجبتُ بصدقٍ مرير، وكأنّني أبحث عن عذر:

«لا.. لم أبحث. ربما لأنّني لا أملك الشجاعة الكافية».

هز رأسه متفهمًا، ثم قال:

«إذن، فلتبحث. لا تجعل من خوفك حاجزًا بينك وبين ما تحلم به».

شعرتُ بارتباك أكبر، فقلتُ بحيرة:

«مثل ماذا؟ كل شيء يبدو بعيد المنال».

رد قائلًا بحزم وهدوء:

«حدد ما تحب. ما الذي يشعرك بالحياة؟ ما الذي يجعلك تنبض بالشغف من جديد؟».

ابتسمتُ ابتسامة قلقة، وسألتُ:

«وهل أستطيع؟! التغيير يبدو صعبًا».

قال مشجعًا وهو يضع يده على كتفي بثقة:

«لمَ لا؟! أنت قادر، لكنّك فقط تحتاج إلى أن تصدق في قرارة نفسك أنّ هذا ممكن».

أجبتُ مترددًا، وكأنّني لا أريد أن أتحمل المسؤولية:

«لا أظن.. الخوف من الفشل يسيطر عليّ».

ابتسم وقال بهدوء، وكأنّه يمنحني مفتاح الخلاص:

«القرار لك. تذكر دائمًا أنك أنت من يصنع مستقبلك، وليس أحد آخر».

يغادرني صديقي، يتركني وحيدًا مع أفكاري التي تبدو أثقل من أي وقت مضى. أقترب من المرآة، أنظر إلى نفسي.. نفس العين، نفس الأنف، نفس الفم، نفس الوجه. لم يتغير شيء.

أُحدّث نفسي بصوت خافت:

«كيف لي أن أتغير ولم يتغير شيء فيّ؟ كيف يمكنني التحرر وأنا ما زلتُ أنا؟».

تدق الساعة، معلنةً ميلاد يوم جديد. الهاتف لا يتوقف عن الرنين.. مكالمات من أصدقاء، وأخرى من أرقام لا أعرفها. أشرب

قهوتي بهدوء، لكن هناك شعور غريب في هذا الصباح. أشعر بأنّ شيئًا تغير، رغم أنني لا أستطيع تحديده.

أرتدي بذلتي الأنيقة، لا أشعر أنّها نفس البذلة التي ارتديتها في الأمس. أقود سيارتي الفارهة نحو وجهة جديدة، وسط المدينة.

أصل إلى مكتبي.. مكتبي الفخم الذي لم أتوقع أبدًا أن أملكه.

أدخل مكتبي، أنظر حولي. كل شيء يبدو مختلفًا، لكن مألوفًا في نفس الوقت. شعور عجيب بالانتصار والغرابة يسيطر عليّ.

أجلس على كرسيي الفخم، أفتح بريدي الإلكتروني، وأبتسم.

لم أدرك كيف تغيرتِ الأمور، كيف تحققتْ أحلامي، ولكن هأنا هنا.

أشعر أنّي..

خارج السرب.

الفهرس

مقدمة.....٦
القطار.....٧
فئران وثعالب.....١٢
سيلفي.....١٤
حورية.....١٨
القوقعة.....٢١
بدون ذكر أسماء.....٢٩
المجنونة.....٣٢
الرسالة.....٣٥
الخواجة المصري.....٣٩
مشاعر.....٤٦
الحلم.....٤٩
الآن.....٥٤

الأستاذ..... ٥٨
الاختيار..... ٦٠
أقنعة..... ٦٣
أحمد وبسنت..... ٦٧
آخر الدنيا..... ٧٠
السيرك..... ٧٩
الديناصورات!..... ٨٣
شمس وقمر..... ٨٥
عالم خيالي..... ٨٧
انتبه فالقطار لا يرجع إلى الخلف..... ٨٩
أريد عصيرًا..... ٩٠
خلف مصنع الكراسي..... ٩٤
حياة..... ٩٩
الحفرة..... ١٠١
للقصة بقيّة..... ١٠٣

الوعد.....١٠٧
علاقة:زوجية.....١١١
عالم موازٍ.....١١٥
انقذ شجرة.....١١٩
فرق توقيت.....١٢٣
هند والحج كرم.....١٢٧
انيس والقرد زقزوق.....١٣٠
الفرافير.....١٣٤
جانيت.....١٤٠
وسقطتِ الذبابة.....١٤٢
وطني.....١٤٤
خارج السرب.....١٤٧